

المستحيل



مصطفى محمود

المستحيل

الطبعة الثالثة
١٩٧٧

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..
 والبيت خال . زوجتي عند أمها وأنا جالس وحدي انصت
 إلى صوت تنفس البطي فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب
 لا أعرفه . ويدعني شعور ثقيل مر بالقرب ..
 هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسي وانظر وجهاً لوجه في حياتي
 وأناأملها ..

أى حياة !!

إني لم أعش أبدا

ليس في حياتي يوم واحد أستطيع أن أقول أنه كان يومى ..
 إني لا أعيش .. ولكني أتحرج كحصاة كبيرة ثقيلة تسوقني
 الوظيفة إلى المكتب .. ويجبرني الزواج إلى البيت .. ويدفعني الملل إلى
 المقهى .. ويلقي بي المجموع إلى مائدة الطعام .. ويقهرني الغيظ على
 التدخين . ويقذف بي التعب إلى الفراش

خمس وعشرون عاما مرت من عمري كأنها لا شئ ازيدت في
 الوزن .. في الطول .. في العرض ولكني لم أزد في الحياة
 سنة بعد سنة وأنا أغوص في أرض رخوة من الأوامر والواجبات
 والكلمات الغريبة ..

الواجب .. الأصول .. تقاليد العائلة تحتم مركز والدك
لا يسمح .. سنك لا يليق فيه كذا . كرامتك .. ماذا يقول الناس .
كيف تكون نظرة المجتمع إلينا الاحترام . الوقار يا أخى .
حتى الجاكنة التى البسها كانت مسكينة مثل بلا شخصية تطول
وتقص وتتنسج حسب الموضة لا بإرادتى ولا بإرادة الترزى ..
ولكن بإرادة التقاليد ..

فى وقت ما كنت أسك فى بدى منشة .. وفى وقت آخر كنت أسك
عصا وفى وقت ثالث كنت البس طربوشاً
والآن تضع لى زوجتى مندبلاً فى كى .. وتحرم على لبس الطربوش
كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسى ولا ألبسها
والحياة كلها كانت تلبسى .. وحركاتى تلبسى . وأنا أتضائل سنة
بعد سنة تحت الردم . تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة .

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولى فى حياى .. فى الفرفقات الخمس
التي أسكنها .

إنها غرفات غريبة ضيقة .. وسقفها منخفض . وكل منها توصل
إلى الأخرى . وهذا ليس ذوق .. فأنا أحب الفرفقات الواسعة ذات
السقف العالى التى تفصلها الممرات والصالات .
وهى غرفات تضربها الشمس من اليمين والشمال .. وأنا أحب
الفرفقات الرطبة الظليلة .

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى لقد اختاره والدى .. اختار المكان
والأرض .. وبنى البيت حسب إرادته . وفصله حسب ذوقه .. واختار
الأثاث قطعة قطعة . حتى الصورة الكبيرة النسخة المنقولة عن
صورة الميجوكندا لدافنشى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى

بمناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال إنها مثال للذوق الرفيع فى الفن .

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قائمة .. وأن دمعها ثقیل .. ولكنى لم أتكلم .. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدباً .. وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه .. فقلت له : نعم .. أنت على حق أنها رائعة .

وقال فى زهو العارفين :

انظر إلى الیدین جيداً

ونظرت إلى الیدین جيداً فلم ألحظ شيئاً .. وقال فى انتصار :
- إنها تبتسمان .. انظر . هذا هو الإعجاز فى اللوحة .. إن الرسام

رسم الیدین تبتسمان

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين لتعزف للجيوکندا وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم .. وأنت تحس بالموسيقى .. وتسمعها وأنت ترى الیدین فى وضعها الجميل الیاسم .

وأکبرت فى والدى هذا الإحساس المرهف .. وإن كنت لم ألحظ أنا أى شىء غیر عادى فى الصورة وظللت أعبد على كل ضیف يزورنا هذه القصيدة .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى والإعجاز فیهر رأسه تماماً كما هزتها ويقول فى آلیه .. یا سلام . حقاً إنها رائعة .. والیدان تبتسمان . تماماً یا سلام ..

ویروح بدوره یحكى القصة لصديق آخر .

وظللت على إکبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرة العميقة الناقدة حتى قرأت مصداقة .. وفى مجلة قديمة .. كل هذا الكلام بالنص .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى الیدین .. والإعجاز .. الخ الخ .

ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روثه الصحف وتناقله القراء . كل قارى يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه .

وظلمت من يومها أشعر بالغيب كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار في غرفة الصالون . وأنسهر أنى لم أقل رأيت رأيت أبدأ فيها وأنى عشت أردت كلمات غريبة عنها طول عمرى .

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن على . هكذا كان يقول . . ولكنى أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه ليرى أن أوامره ما زالت نافذة . . وملاحظاته معمول بها . الدواليب مغلقة بالمفاتيح . . والمفترس المشمع موضوع على مائدة الطعام . . وأصبص النعناع في البلكون . . والنوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشمس . . وأول شئ ينظر إليه عند دخوله هي النوافذ . فإذا رأى النبيت مغلقة فتحه على مصراعيه وهو يصيح :

- الشمس يابنى الشمس هذه شمس لا مثيل لها في الدنيا . . إنها أحسن دواء للرومانزم . . افتح الشباك عندك . أنا قلت ألف مرة افتحوا كل الشبائيك .

ويتمدد في الشمس يطرق مفاصله . .

وأبى كان دائماً يشكو من الرومانزم . ولهذا كان يفتح الشبائيك في بيوت أولاده في كل وقت . . وفى كل فصل من فصول السنة . . ولو استطاع لسقانا فنجاناً من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان يفعل .

ولم يكن يجدى أن نحتج ونقول أننا أصحاء . . وأنتا لسنا مرضى بالرومانزم . . فعنى أن يكون أبى مريضاً بالرومانزم . . أن نكون جميعاً مرضى بالرومانزم . . فأبى مفتش تركى فيه كل أخلاق الأتراك ودماعهم

الناشف . وغرامهم بالأمر والنهي .

وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا نكبة .. ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضاً

لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كيانه مستقلاً
أذكر حيناً كنا صفاراً أن أبي كان يحب الشاي فكنت أشرب معه
الشاي . وحيناً تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب
شرب الشاي . أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون .
وظل سلطانه يحلق فوق رأسي حتى بعد أن تجاوزت سن التلمذة
وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادي الخاص

كنت أستشيريه من تلقاء نفسي كلما وقعت في مشكلة كان الخوف
ما زال في دمي . الخوف من الدنيا ومن المرأة ومن أن أحسم
أمراً بإرادتي .. وبدون مشورته .

كان قلبي تأكله الرغبات من الداخل ولكني لم أكن أجسرؤ على
التفكير فيها وإشباعها وإنما كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفي بأن
أقنى ثم أهرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدي أطلب نصيحته .. وأترك
له حياتي بيت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر .

وهكذا ظلت حياتي معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش طفلاً
كبيراً يلاً قلبي الخوف والاحترام والرهبة ..

ولو سألتني إن كنت أحب أمينة زوجتي لما وجدت جواباً فأنما
لم أحبها ولم أكرهها ولم أختارها وإنما هي كصورة الجيوكندا
وضعها والدي في بيتي وقال إنها جميلة ورائعة . فقلت خلفه كالطفل
جميلة حقاً ورائعة واحتضنتها كما احتضن كل كلمة يقوها أبي .
ولكن بقدر الراحة التي كنت أحسها في هذا الحب إلا أني كنت
أحس أنه ليس حبي أنا .. وإنما هو حب أبي وذوقه واختياره ..

كان كل شيء حولي لا يمت لي .. كان كل شيء غريباً عني حتى
ملابسي .. حتى أفعال .. حتى أقوال كانت غريبة عني .
ولكني لم أكن أدرك مشاعري بهذا الوضوح في البداية . لم تكن في
ذهني فكرة واضحة عن شيء ..
كنت أعيش في فتور وآلية .. وبلادة . واستسلام . حتى مات أبي
فجأة .

وأفقت لأجد نفسي وحدي .. بدون سند إلى جوارى .. بدون
قدر .. بدون إله .. بدون حب .. بدون مبرر لأني فعلت أفعالي سوى
إرادتي .

وأين هي إرادتي ؟

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية في توقيع شيك .. وأنظر فوق كتفي
بين لحظة وأخرى .. أنتظر أن يظهر والدي فجأة لأسأله .. هل من
الصواب أم الخطأ توقيع هذا الشيك .
ولم يكن هناك حل ..

كان لا بد لي أن أحمل أعبائي بدون معونة أحد .
وكان هذا يسبب لي قلقاً حاداً قاسياً مجرماً النوم .
لقد بلغ مبرائي وحدي من تركه أبي مائة فدان غير العقارات
والأملاك وسندات البنوك .. وهي ثروة كبيرة فوجئت بها
وكان معنى هذه الثروة أن أذهب في عشرات المشاوير كل يوم .. إلى
البنك .. وإلى البلد . وإلى البورصة .

وفي كل مشوار من هذه المشاوير أقابل ناساً لا أعرفهم .. أناقشهم
وأوقع على أوراق . وأمضي على عقود . وأبدأ صفقات . وأنهى صفقات .
وفي كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنني وحيد متردد خائف .
وأعود من البنك مبليلاً الذهن .. في ظني أنني قد نسيت شيئاً ..

وقعت في خطأ ما .. أو تورطت في إجراء غير قانوني .
ولكن بمرور الأيام بدأت اكتشف أن المال في البنوك والإدارات
المالية يحفظ نفسه بنفسه . وإنى لست في حاجة إلى ذكاء كبير
لأضاعف أموالى فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها في العقارات
والأراضي والبنوك .. وما على إلا أن أنهب أول السنة لأجمع الأرباح
وأوقع في دفتر .. وبدأ الخوف يرايلنى
وبدأ ذهنى ينصرف إلى أفكار أخرى ..
أفكار لا علاقة لها بالأرض .. والبنك .. والمرحوم والذى .. أفكار
لها علاقة بى .. أنا .
وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاي منذ أيام .. وقلت لها
أنا لا أحب الشاي ..
نظرت إلىّ في دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول ..
أنا .. لا أحب ..

تعودت أمينة أن أكل ما تقدمه .. وأنرب كل ما تقدمه ..
ولكنى قلتها
قلت .. أنا لا أحب .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً لأنى أقول
ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد ..
واكتشفت فى ذلك اليوم عندما دخلت غرفى وجلست على مكتبى
أنى لا أرفض الشاي وحده .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة
أرفض ببقى وحياتى وأنفى أن أصرخ فجأة .. لأقول لزوجتى أنا
لا أحبك . وأقول عن حياتى أنها سخيفة .. وأنزع الصورة المدلاة من
الجدار .. وألقى بها فى الشارع
ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا ..

واكتفيت أن أرفض الشاي في عصبية .. وأزججه من أمامي .. ثم
أشعل سيجارة ..

وعادت حياتي فجأة أمامي .. كشرط سريع .. حياة سخيقة مثل
لحبة مستعارة .. ليس فيها ملاهي .. ليس فيها .. أنا
وتعمرت بشهوة الطفل في تحطيم أي شيء .. والجرى إلى الخلاء ..
إلى الهواء الطلق .. والعريضة .. والضحك .. والبكاء ..
شهوة ملحة في أن أبسط أجنتي التي كانت مضمومة طوال هذه
السنين .. وأحلق بها كالطائر ..

وتدققت أيامي كلها .. تطالب بحقها في أن تعيش من جديد ..
طفولتي .. صباي .. نياي

ثم عاودني الجبن .. وثيقظ خوفي القديم .. وأمسك بعقالي ..
وسكت على مضمض .. وأنا ألوك في في آلاف الكلمات ..
ولكني أحسست أني تغيرت .. وأصبحت شخصا آخر غير حلمي
القديم ..

عرفت لغة التردد ..

وظل هذا الإحساس يلازمي .. وأنا أدخل إلى البورصة ..
والسيجارة ما زالت في في .. وعيناي تقرأن الكلمات المكتوبة على
السيورة في الدور العلوي ..

حركة الأسعار .. نوع الأوراق المالية .. أسعار الفتح .. أسعار
الإقفال ..

وأذني تلتقط صيحات السامرة حادة مختلطة .. سيجورات ٨٤٢
سيلوس .. سيلوس .. التمددين ٤٠٠ بايع .. بايع ..
المناجم ١٢٨ الملح .. الملح شاري ..
أنجنت طره ٩٧٠ ماتكسا .. ماتكسا .. بايع ..

والأيدى تلوح .. وتنشك .

والأصوات الحادة ترن في أذني كأصوات القطط وهي تتعاضد على
صفحة قامة .. وعيونها تنع ضوءاً أخضر مخيفاً ناو .. ناو .. لو ..
غو غو

ورأس الخواجة مرمى التاجر المجوز ووجهه الأبرص المرقط
بالبياض يذكرني بوجه قطتنا .. جيجي ..
وانتقلت عيناى في آلية لتقرأ على لوحة أخرى . كثرات أفطان
طويلة التيلة .. فولى جود ..

وصمت الخواجة مرمى يتحدث ويلوح بيده
- يا حبي الدنيا هنا مجازفة . الى عاوز يكسب لازم يجازف .
يرمى نفسه الى يخاف هنا يموت ..
ووقفت خائفاً في ركن أطلب نصيحة الخواجة مرمى قبل أن أبيع
أوراقى ..

وأشار على بصفقة صغيرة ..
وأسكت بقلبي لأوقع الإذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل
إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولي .

كان كل واحد يتنمر . ويتلمظ على المكسب ..
وأخذت أنا الآخر .. أتلمظ .. وأتنمر .. وأتبع أسعار
أسهمى وهي ترتفع وتقفز من رقم إلى رقم على التابلوه .. وأتبع
الطبانسيرة وهي تكب ١١٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ ثم
تتوقف وبصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ - ١٢٣

وترددت لامن الخوف .. ولكن من الطمع .
لقد ارتفع السعر ١١ بنظاً في يوم واحد .. فما بالى لو انتظرت يومين
آخرين ..

وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى . وشعرت بإحساس الطفل الذى
تزوج عيناه أمام دكان الحلوى ..
وغمزنى الخواجة م ترى لكى أبيع . ولكنى لم أبيع ..
وحينا خرجت فى ذلك اليوم . كنت أشعر بشئ جديد غامض يدخل
حياتى .. كنت أحس بنض الحساس والجسرة يتسلل إلى عروقى .
وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عني شيئاً فشيئاً كالرداء . وتبدو
غريبة ..

زوجتى ببقى . فنجان النساى الذى أرسفه على الفطور .
أصوات الشارع الأليقة وهى تملو فى الصباح تحت نافذتى مهمة أم
حسن خادمتنا المعجوز على سيجتها . ودعاؤها لى بطول العمر .
كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كعلم غريب غير حقيق .
لقد تغيرت

كان هذا الإحساس يسعدنى .. وكنت احتفل به فى قلبى

* * *

وحينا خرجت من السبنا فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة
الى البيت

ورأيت قدمى تسعين على غير عادتى الى ملهى ليل .
ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشاهها . وتنايل ..
وتناود .. وتنام على ظهرها . وعازف الطبله يقفز حوها كالقرد ..
ولفت نظرى ان كرمى عازف الطبله عليه نسلكه ولا أدرى لماذا
خطر لى ان عنده بواسير ..

وضحكت طويلا لهذا الماظر السكران ..
ولم أكن قد ذقت قطرة خمر .. ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشبعة

خفيفة .. وكنت أرى سبباً للضحك في كل شيء حولي .
وبدت لي حركات الطبل مثيرة للضحك .. وكان كلما مد يده خلفه
ضحكت ..
وحينما تركت الملهى في ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود إلى
بيتي ماشياً
وكنت أجد للهواء طعماً لذيقاً في رثقي .. وكنت أستنشق في بطء ..
ويداي في جيب بنطلوني .. وفي يصفر اغنية شعبية
وكان كل واحد يمر بي .. يشتم .
وحينما فتحت باب شقتي فوجئت بزوجتي تقف أمامي شاحبة حمرام
العينين قلقة . تهتف في صوت خائف :
- أين كنت طول الليل ؟
وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحاً .. وأن هذه هي المرة الأولى
التي أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة ..
ومسحت على وجهي بيدي .. وأنا أفيق .. وأعود شيئاً فشيئاً إلى
نفس القديعة ..
وقمت بكلام لا أذكره
وخلعت ثيابي . وتناولت عشاقي وأنا صامت .. لم أكن سعيداً بعودة
هذه النفس القديعة .
وبدا لي في تلك اللحظة أني هبطت فجأة من السماء إلى الأرض .
وعدت إلى الحياة كإنسان ميكانيكي يدور بزميلك .
وتناولت زوجتي خطاباً عليه طابع دمشق .. ونظرت في الخط وأنا
أستأدل .. من الذي يرسل إلى خطاباً من دمشق .. ووضعته في
جيبى
وفي الفرائش مددت يدي إلى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه السطور .

عزيزى حلمى

لعلك لا تذكرى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا
سنوات طويلة .. ولكنى أذكرك .. وأذكر معك أجمل أيامى .. حينما كنا
نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار .. ونجسرى فى
دائرة حول النورج كل منا يمسك بذيل الآخر .. وأذكر أيام زمالتنا
فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا معا حينما كنت تخاف وتعود إلى
المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان .
واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى .. وفكرنا أن نلتق ثانية
لنتعرف على ماضينا الحلو . ونعيد أيامنا الجميلة .
إننا نعيش الآن فى دمتسق ولنا أملاك وأراضى هنا . ونحن ندعوك
لقضاء شهر فى ضيافتنا ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة
ونحن فى انتظار اليوم الذى نحدده وإلى أن نلتق لك حينما
وأخوتنا

« فؤاد »

ونسعرت بموجة من السرور . وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته
وأغمضت عيني
سوف أذهب إلى دمشق
وأخلع ردائى كله .. أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة .
وأخلع عنى القاهرة كلها .. وأخلع حياتى . وعاداتى . وكلهاق .. التى
أقولها كل صباح .. وأعيش .
وسعرت بدغدغة النسوة فى كل جسد .. ونظرت إلى زوجى فرأيتها
تنظر إلى باستغراب . وتسألنى عما فى الرسالة ..
ولم أجب .. وتناومت .. فأحاطتني بذراعيها .. ولكنى لم أنسعر
بالرغبة فيها .

وأحسست بأطرافى تبرد وتتلعج تحت لمستها . وأدبرت لها ظهرى
وبدأت أتخيل صاق .. وجهها التركى الأبيض .. وصفيرتها الذهبية .
وعينها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل . وذراعها البشى مثل
عود الخوص الطرى .
وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى . وأحسست بلهب الجنس يحترق
دماغى .
ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرأ . وضننت بها وتركتها
تقل فى دمى . وتؤرقنى .. مثل سر لذيق جداً . وظللت أحلم .
وكانت زوجتى تتحدث . ولم أكن أسمعها
كنت أنظر الى قها وهو ينفتح وينفلق .. وإلى كنفها العريضتين .
ودقت ساعة الحائط أربع دقائق .. ونقل قلبى فجأة وعادنى الحسوف
وأحسست أنى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرون سنة ..
وأنا فى بيتى لا أبرحه .
وداهنى شعور بالتردد .. شعور من يمد رجله ليخطو خطوة واسعة فى
الظلام .

توقفت في الصباح وقد نسيت كل شيء .. وفي اللحظة التي كنت ألبس فيها ثيابي .. كنت أدخل في عاداتي القديمة في نفس الوقت .. وكانت زوجتي تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التي تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة .. وعلى الأكثاف .. وعلى الظهر والأكمام .. وثنية السروال ، ثم تنصحنى كماداتها أن آخذ بالي من الطريق وتنظر إلى نفس النظرة الحنونة . وأم حسن تجبري خلق وفي يدها الحقيبة . والباب يزوم كمادته دائماً كل صباح لينشكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المصعد يرفع يديه الإثنين لتحقيق .. ويفتح فة في بلاهة فتبدو سنته الذهبية نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التي أصطبح بها كل يوم

وجلس في العربة .. وتساعدت الى أنقى رائحة البازين .. وممعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات المحلات تتحرك في الزجاج وتغتنق . ولكن أذنّي ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتي وهي تعطيني المندبل .

لا تنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابنتنا ..
جملة غريبة في هذا السيل من الحياة العادية ..
ظلت ترن في أفق طول الطريق .. وأنا أحس أنها جملة طريفة ..

وأتذكر احتفال السنة الماضية . الذى لم يحضره أحد سواى أنا
وزوجتى وأبى . وكيف كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها
وأبى غاضب لأنها تناقسته وتريد عزومة الناس . . وماذا وراء عزومة
الناس إلا الحسد وأنا أكل من التورته ولا أفكر فى شئ وإبننا
يصرخ فى الغرفة

ولكن الآن أفكر فى أنبياء كثيرة . . وأنتظر هذا الاحتفال بشوق .
وكلمات زوجتى ترن فى أذنى كما ترن بشرى العبد فى أذن طفل .
وإحساسى بالزق يدفعنى إلى الضغط على الكلاكس . . والعبث . . وأنا
أسوق . . وأتأرجع يمناً ويساراً
اليوم تحتفل . .

أنا أشعر بانبساط
وتوقفت عند دكان لعب . واشتريت قرداً بزميلك يقفز ويصفق
بيديه . . واشتريت ورقاً ملوناً . . وصواريخ
وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد . .
ثم عدت أستأنف سيرى . . وأسلم نفسى إلى حياى العادية . . وعلى
شفقى ابتسامة . .

وفى المساء حيناً عدت الى البيت . . دخلت غرفتى وأنا أصفر . . ثم
أغلقت الباب . . وأخرجت القرد وأدريت الزميلك . . ورحت أنفجر عليه
وهو يقفز ويصفق بيديه حتى توقف . . ثم أدريت الزميلك مرة أخرى . .
ورحت أنفجر

ونسيت أبى قد أحضرت اللعبة لطفلى . . ورحت ألعب بها . .
ولكن زوجتى التى تسالت من الباب الموارب وجاءت تستطلع .
ووقفت تنفجر خلقى . . ما لبثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى :
- أنت الذى تلعب . . غير معقول ؟

وضحكت وأمعت في الضحك ..
ومع هذا . فقد أسكت هي الأخرى بالقرد .. ثم بدأت تدير
الزمالك .. وتلمب
ثم قالت فجأة في مرح :
- إن حفلة اليوم ستكون ظريفة .. لقد دعوت جيرانتا ودعوت
صديقي فاطمة .
ورفعت رأسي عند ذكر الاسم .
وكنت أسمع منها دائما حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية ..
ولكني لم أكن قد رأيتها أبدا
وكانت كثرة ذكرها أمامي . ورواية حكاياتها . قد جعلت لها
نخسية في ذهني .
وشعرت بمرور حق ..
وعدت أملاً الزمالك وأنفجر على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق
بيديه .

لأول مرة كنت أشاهد كرسي الصالون من غير بياضات هذه
الليلة . وقاش الطقم يلمع في ضوء النجفة الكريستال ..
وكنت أعجس قاش الطقم في لذة وأختلس النظر إلى الضيوف .
كانوا ثلاثة .. جاران الأستاذ عزيز .. وزوجته نادية .. وفاطمة
المحامية ..

وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأتتبع حركاتها في اهتمام ..
وأجد من الصعب الآن أن أصف إحاسي بها لأول مرة .
كان إحاسي حيناً أسكت بيدها لأصافحها أني أسك بأصابع

خالية من العظم .. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم
« عرسة » .

وكان صوتها المبلل وهو يحادثني فيه لزوجة تلتصق بالأذن
وبالأعصاب .

ولم تكن جميلة .. ولكن جسمها كان فيه بضاعة
وكان صدرها يكظ من فتحة ثوبها .. وكانت أردافها تضغط على
الفسنان .. وكانت استدارة كتفها وهي تختفي تحت الحرير الأسود المطرز
تثير الخيال والتصور .. وتقربه على تتبع هذا الانسيال .
وكان تكرور بطنها تحت الفسنان يوحي بأن لحمها ليس فيه نية
واحدة وأنه مشدود متوتر .. فائر .

وكانت عيناها فيها بريق .. يومض .. وينطفئ .. حيناً يتعكس
عليها الضوء . وهي تتلفت ..
وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كلماتها مبادرة غير
عادية في النساء .

كانت على عكس زوجتي تماماً
وكانت زوجتي سعيدة بها جداً .. فخورة بشخصيتها وجرأتها
وكانت تقول وهي مبهورة

هذه هي رائدتي . هذه هي القائدة التي كانت تزعمننا في
المظاهرات وفي الإضرابات .. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية .. وكانت
رئيسة الإخوات المسلمات .. ورئيسة فرقة التمثيل . ورئيسة كل
حاجة ..

- فعلاً إن مخايل الزعامة تبدو عليها
كنت أقول هذا وأنظر إليها .. فتبادلي بنظرة نابذة وعينين فاحصتين
لا تطرفان حتى أنكس بصرى .. فتلاحقني بكلماتها وصوتها المبلل ..

وتبادرنى قائلة فى تحد :

- ما لكم دائماً تصابون بالدوار حيناً تسمعون عن امرأة .. تقود وتأمّر .

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرك فى عينيها :

- لأن المرأة تقود وتأمّر فعلاً بدون حاجة إلى مظاهرات وإضرابات وخطب . لأننا نجها ونسلمها ذقوتنا .. فيصبح الرأى رأياً والكلمة كلمتها .

- أنا أرفض هذه القيادة التى أفوز بها بمجرد تنازلكم . إنه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبيكم .. أنا أيضاً لى غرورى .. أنا أريد أن أغتصب حقى بيدي .. وأأخذ رغبا عتك .
- أسمع الكلام .

وتصفق زوجى فى سرور وإعجاب .

- أسمع الكلام .. هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريكم مقامكم .

- أنها لن ترينا مقامنا .. وإنما هى سوف تسعى إلى حتفها بيدها .. سوف تتحول إلى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن نصبح نساء . نجلس فى البيت وتأخذ نفقة ومؤخراً ومقديماً وشبكة وبذلات أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا .. إنها ورطة يسرنا أن تقعن فيها . أنا لا أمانع شخصياً فى أن أنام فى البيت وأنازل لكن عن الشقاء وعرق الجبين .
- أظن أنه يمكن أن أتحوّل إلى رجل .. إني أعمل منذ خمس سنوات . أظن أنى أصبحت رجلاً أنظر جيداً ..

وترمقنى برمش عينيها فى دلال . وبهقه الأستاذ عزيز :

- إنك لا تغلبين يا صاحبي اسمع نصيحتى إن الطريق الوحيد لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك .. وحيناً تحبك سوف تقتنع بكلامك ..

وتكف عن مناقشتك .

- لماذا تصرون على تصويرنا هكذا في صورة مخلوقات عقسوها في عواطفها .. مخلوقات لا تفهم ولا تعقل . ولا تحركها إلا نزواتها . أنتم واهيون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروّجنا هذا الوهم .. وأدخلنا في ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم شطار وأقوياء ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لنأكل عقلكم ونأخذ ما نريده تماماً كما نفعل مع أطفالنا

وتصفق أمينة وتقف وتجلس في سرور .

- أستمعون ؟ لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا .

ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأصلع .

- أنتن يا نساء لا تجدن إلا الثرثرة . إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه في الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة . - وخصوصاً حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة . إنها لا بد أن تكون مخلوقة من لسان ضاى أصلى .

- أنا شخصياً اعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. وما زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. أنها تنسج في أى مكان إلى الرجل فينبعها وما يلبث أن يصبح زوجها . وأنا في المحكة أشير بأصبعي وأنا أترافع .. وأنفذ أعناقكم يا رجال من المشائق .. وهكذا بأصبعي فقط

وتلأل وجه أمينة في سذاجة . وهي تحتضن صديقتها

- أستمعون .. بأصابعنا .. فقط .

ويقهقه الأستاذ عزيز .

- لا فائدة من مناقشة امرأة .. انك تلف وتدور .. ثم تسلم لها بكل ما تريده .. لأن دمها خفيف .. ولأن لذة إرضائها تفوق لذة الحقيقة ..

أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء .. وأسلم .
- برافو يا فاطمة كسبنا القضية .
وتضحك فاطمة وتهتف .
- أشكرك .. والآن . أين مؤخر الأتاعاب .
- لقد أعددتنا لك عشاء شهياً
- راتع .. يا أخى



وعلى العشاء كان فى إمكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كتب
وأ تأمله وهو يتكلم .. ويأكل ويلوح بيديه ..
والأستاذ عزيز قصير القامة . فى الأربعين . رأسه صلعاء فى
منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين .
وهو حيناً يتكلم يلعب شفثيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزمفه ..
فتبدو شفثاه رفيعتين جداً .. وفه مرسوماً فى صرامة وقسوة
وهو يتكلم بحدة .. ثم ينفجر فى الضحك من تلقاء نفسه . ويقهقه
بحدة أيضاً .

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة . وكان يميل إلى
أحياناً أنه يأكل منها هى . ولا يأكل من الطبق لأن الطبق كان
يفرغ ولا يظن إليه .. ويظل يخلق أمامه حيث تجلس فاطمة إلى
جوارى . وتهداها النافران ينصبان من صدرها فى تكرور نسهى
رجراج .. وكنت أحس وهى إلى جوارى بلمس ذراعها . وبذلك
التشعر الأملس الحيوانى الذى يتشرب الى من جسمها الطرى الذى
يشبه جسم « العرسه » .. فأشعر بالخدر وأترك كفى لا صفاً بكتفها ثم
أعود فأتوقف وأنفصر بعيداً .. وأنظر الى عزيز .. وهو يلعب شفثيه .

ويزم فه . ويومه كالقطة وهو يأكل
وكان الكلام يدور على المائدة عن الهامة والمفارقات التي تلاقيا
الهامة أثناء العمل ..
وكانت زوجتي تتكلم عن قضية الوقف التي رفعناها من سنين .. ولم
نصل فيها إلى نتيجة . وتقترح على أن نسلم القضية إلى فاطمة .
لتعالجها بعقريتها وفاطمة تبتدى استمداها ثم تنظر إلى ناحيتي
وتهمس :
أخذ فيها ألف جنيه .

- أنا مستعد .. إكسبها أولاً وأنا أعطيك ألف جنيه .
- إتفنا مر على غدا في المكتب . لنبدأ في الإجراءات
ولا أدري لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأني طفل يأخذ ميعاداً
غرامياً وضائقي إحسائي .. ونظرت إليها في رهبة من جانب عيني
وضبطتني وأنا أنظر إليها خلسة ابتسمت .. ثم ضحكت ..
وأشرق وجهها بسعادة أتمة . وغرور .. ضائقي أكثر وأكثر .
وضمعت بالفيظ وبيل إلى السخريه منها .. فقلت وأنا أضغط على
كلماتي كلمة .. كلمة

- أن كل أمني الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاء نساء
وأشاهد فشل كل الهاميات بعيني .
وضحكت فاطمة وهرس عزيز رأسه . بينما أردفت أنا في هدوء :
- إننا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا أنتن تصعن علينا
ولو كنت قاضياً ووقفت أمامي تبكين حظ المتهم حتى يح صوتك . فإني
كنت أعطيك البراءة لجرد النسفة .. فأنتن مها أخذتن الشهادات
والدبلمات وارتفع صوتكن بالجمعية .. ستات .. ولأيا
فأجابت فاطمة في بساطة :

- حينما يصبح المحامي امرأة والقاضي امرأة فسيكون المتهم رجلا ولن
تهمنا القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم ..
- حينذاك سوف نترك لكن الدنيا ونذهب لنعيش في القمر أو في
أى كوكب آخر .
- حقاً ؟! .. أتستطيعين ..
وكانت تنظر الى وكأنها تقول لى من طرف خفى .. إنك لا تستطيع
حتى أن تترك الكرسي بجانبى



كنت أدخلن بشراة بعد العشاء .. وأنظر في الركن حيث توجد
زهرة كبيرة قديمة .. والضيوف من خلف يترنون ويضحكون .
وفاطمة تحتضن ابني وتقبله .. وصوت البيانو يعلو من أقصى الغرفة ..
فأظن أنه الراديو .. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يلفها التراب
من سنين .. ولا يضرب عليه أحد .. ولكنني فوجئت بمدام عزيز جالسة
على كرسي البيانو تمزف
ودهشت لأن طول السهرة لم أفطن الى مدام عزيز . لم أحس
بها .. كانت موجودة معنا طول الوقت .. لكن بدون صوت . لم تتكلم
كلمة واحدة
وتذكرت أنها كانت تجلس عن يسارى على المائدة طول الوقت .. ولم
أنظر إليها ..
وكان زوجها عزيز يقف على مقربة .. ينفث الدخان من سيجار
ضخم .. وقال لى عندما رأى .. أن زوجته نادبة عازفة بيانو ممتازة .
وسمعت زوجتي تهتف :
برافو يانانى . هذا عزف رائع ..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة .. ونظرت إلينا
كان وجهها رقيقاً صغيراً فيه طفولة . وعيناها السوداوان فيها قلق
وشروء .

وكان يحيل إلى أنها لا نرانا . وأنها تنظر من خلالنا
وعادت إلى العزف .. وأخفت رأسها الصغيرة خلف البيانو .
أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟
واقتربت من البيانو ..
وكنت أرى شعرها المتهدل .. وكثفها المنحدرين وجسمها الضئيل ..
ويدها الصغيرة وهى تنتقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..
وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء . ودارت ببصرها
فيينا ..

ومرة أخرى شاهدهت عينيها السوداوين وذلك القلق المبهم ..
والشروء .. والضياع .. الكامن فيها
كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين .. وتتكلم فى همس كأنها
تكلم نفسها . وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد .
وقال عزيز :

ان زوجتى تقرأ كثيراً إنها دودة كتب .
واختق صوته فى ضوضاء البيت .. ورنين ضحكات طفلى وهو
يجرى .. وفاطمة تجرى خلفه ..
ومرت لحظة صمت .. وسعل عزيز سعلة حادة ثم عاد يحاول
انتمال سيجاره الذى انطفأ .



فى تلك الليلة حينما أغضت عيني لأنام .. حاولت أن أتذكر الوجوه

التي شاهدتها في الحفلة . وجهاً . وجهاً .. ولكنى لم أستطع أن أجمع
أستانتها من ذهني

كانت صورة فاطمة تلح على خيالي وتنسلل إلى أعصابي ومعها
تميل بخدري كل .

صوتها المبلل وملسها الناعم الحيواني . وصدرها النافر
الرجراج .. والبريق المتنع في عينيها . وتخصيتها الوقعة . وكلامها
الملئ بالاستغزاز .

واكتشفت أني نسيت تماماً أصدقاء دمشق ومشروع دمشق
وانزلت من ذهني كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط .. هو
فاطمة .. اشتهاه .. ونفوره . وغبط . وخوف .. ورغبة في فاطمة .
رغبة في إيذائها

كنت أتخيل أني أمزق فستانها حتى تصرخ .. وتقول : ارحمني .
ولكنها لم تكن تقول .. ارحمني .. وإنما كانت تضم أطراف جسدها
الريان . وتتنظر إلى نظرة من هذه النظرات التي تبرق .
وكنت لحظتها أفيق من خيالاتي .. وأتذكر الميعاد الذي بيننا فيخفق
قلبي بسدة .

وتوترت أعصابي فلم أستطع النوم .. وظللت أحمق في الظلام ..
وأقلب في فراشي . وأقلل .. وأنفخ .. ثم أحاول أن أطرد كل شيء
من ذهني لأنام .

وتضخمت أصوات الليل المخافتة فأصبحت جلية واضحة في
سمعي . وبدأت أتبع صوت قطرات الماء وهي تدق على الحوض .
وتككة الساعة .. وطنين موتور النلاجة .

وتيفظت زوجتي وسألتني إن كان هناك شيء يؤرقني .. فقلت :
لا شيء . القهوة كانت شديدة وهي التي نهت أعصابي ..

وسمعتها تروح في النوم من جديد .. وسمعت تنفسها يزداد انتظاماً
وعمقاً كلما أوغلت في النوم .. ثم أحسّت بذراعها يحوطي وينام وادعاً
على صدرى . وسمعت فيها يتمّ كلاماً لم أتبينه . لا شك أنها كانت
تحلم حلماً رقيقاً حنوناً

وسألت نفسى في تلك اللحظة .. ماذا أريد ..

ماذا أريد بنفسى

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعيشه . وصحة
وشباب ومال وجاه . وها أنا ذا أتقلب على فراشى مؤرقاً كنشخص
مريض تسمع الحسى

ماذا أريد .. ماذا أريد !!

وكان السؤال صعباً أصعب من الأرق ..

وشعرت بالصداع ..

ونقلت رأسى جداً .. ورحت في النوم .. نوم قلق تشوشه الأحلام
وكلها أحلام من نوع واحد .. يلجيم عليها الخوف ..

فأنا في مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط . وفي مرة أخرى أركب
سفينة فتسرق على الفرق .. وفي مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم
هدومى .. وفي مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف انى نسيت
الحذاء .. وأنى سرت طول الطريق حافياً ينظر الناس في وجهى
باستغراب .

وأنا دائماً أقع من آخر دور .. ولا أصل إلى الأرض أبداً وإنما
أظل أهوى من حائق في ذعر أوتك على الاصطدام والتناثر كل ذراع
في ناحية . ولا أجد شيئاً أسك به .. ولا أحد أنادى عليه .
وحدى . وحدى في الهواء .. بلا أرض . اقف عليها .
لم يكن نومى نوماً .. كان عذاباً ..

كنت أعاني ..

وحينا فتحت عيني على ضوء النهار .. وشعرت بدفع البيت حولي .
وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأني خرجت من جب
مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة ..

ولكني بعد ذلك بساعة حيناً وقفت أمام المرآة أنظف إلى طولي
وعرضي وأناقني .. لم استطع أن انسى ذلك الاحساس الذي ظل يأكلني
طول الليل .. يأتي صغير .. وحيد ضائع في الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترق وأنا نائم وظللت أنتفض من
الخوف كطفل تركته أمه وحيداً في الظلام .

وحينا كنت أسير في المساء إلى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت إبطي
ملفات القضية التي اتفقنا عليها عاردي مرة أخرى ذلك الشعور .
وأحسست أني أضرب الأرض بقدمي بشدة وأرفع رأسي في
صرامة .. وأقطب جبیني لأبعد هذا الإحساس بالضعف
وحينا دخلت مكتبها .. وقابلتي ضاحكة .. شعرت فجأة
بالارتباك

وسارعت إلى الملفات . أفتحها .. وبدأت أنسج لها القضية التي
حفظت كل تفاصيلها .. وذاكرتها في البيت جيداً
وظلت تصغي ويدها على خدها وعيناها مسطرتان كالصباحين
الكشافين على وجهي طول الوقت ..

وبعد فترة قضيتها في القراءة رفعت رأسي ونظرت إليها سائلاً :

- هيه هل فهمت الآن المشكلة كلها

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك .

- لماذا تضحكين ؟

- لأنك جد جداً .. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر

منى .. إنك تدخل متجهما وفي يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم
تخبط الملفات على المكتب .. وتفتحها وتضيء القراءة بصوت عالٍ .
ثم تسألني فجأة كأني تلميذة .. وتقول . هيه .. هل فهمت .. أراهن
أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحككنى يانسيخ .
وتراخت أعصابى دفعة واحدة . وايتسمت رغما عني .. ووجدت
نفسى أنظر لها فى استسلام . وقد أيقنت أنى اقتضحت .
وأخذت أتلهى بالنظر إلى الغرفة حولى إلى القماش الأزرق الذى
يغلف الكراسى والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية .. وإلى
عبنى فاطمة اللتين يعربد فىهما الكلام ..
وكان واضحا أننا نحن الإثنان لا نهتم كثيرا بأمر القضية .. وأتينا
كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها .
وقلت وأنا أنسبر إلى الأباجورة :
- أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا
الضعف فىنا فقط نحن الرجال .
- لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده . إن الذنب ذنب
النحاتين الذين لا ينعثون إلا النساء ..
وصبت لى الشاى فى الفنجان أمامى .. وبدأت أشرب وقد عدت إلى
نفسى قليلا .. وزال عنى الحرج . فلم أعد بحاجة إلى الكذب .
والكلام .. فى القضية ..
قضية إيه ؟
وقلت وأنا أنظف حولى :
- مكبك جميل . لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. إنه
صالون .
- انى أحب ان أستمتع بحياى وعمل .. انى أحيط نفسى هنا بكل

الأنثى التي أحبها .. وأنت تجدد حولي كل شيء .. حتى الراديو .
وأخرجت راديو صغيراً في حجم علبة السجائر .. وأدارته فخرجت
منه الموسيقى .

- يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟ .

- أجل بكثير .

- إن زوجك رجل سعيد .

وضحكك ضحكة جافة .

- زوجي . لقد طلقت زوجي من زمان . إن الحرية أجمل شئ في
الدنيا هل جربت حياة العزوبة ؟

- لا

- أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. إن أجل شئ في الحياة
أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً .

- ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا . زوجة مطلقة
في بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين ؟

- ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم .. كل الناس كذابين ..
ثرثارون متافقون نافهون . أنا أعطي لهم المثل .. وهم يمشون خلق .

ويقلدونى . إن كل جارة من جارائى تمنى أن يكون لها مكتب مثل
مكتبى وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثل . ولكنها تقول كلاماً
آخر حيناً تسأله لسانها يقطر كذباً وحسداً أتريدنى أن أحسب
حساباً لمثل هذه المرأة . إني أعيث حياة واحدة فكيف أتأازل عنها
لامرأة ثرثرة كذابة . ولماذا لمجرد أن ترضى عني وماذا يساوى
هذا الرضى الكاذب .

وقاطعتها فجأة لأقول في نبرات حادة :

قولى لى .. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك ..

وشعرت أنها تضايقت .. ولكنها أجابت في برود :

- لأنه رجل مغفل .. مثل كل الرجال المغفلين .. يريدني أن أكون
جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته .. يريد أن يجري ويلهو على كفه
ثم يصود إلى البيت ليحدثني راکسة عند قدميه .. أقول له يا حبيبي ..
يا ميمودي .. وكأني أرض وقف مكتوبة باسمه .. يتركها خرابة مائة سنة
ثم يعود فيجدها ما زالت خرابة ..
وقلت لها بهدوء :

- هل كنت زوجة مغلصة ؟

فأجابت وهي تضحك ضحكة مقتنبة :

- إن الإخلاص تعقل لا داعي له إنه أحياناً يلائم المرضى
والمقعدين .. وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعيشوا
ويستمتحوا ..

ثم انتفضت فجأة لتقول بغيظ

- ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مغلصة ؟ لماذا لا تطالبون
الرجل بالإخلاص .. لماذا تفتفرون له عندما يخطئ ولا تفتفرون للمرأة ؟
- لأن المرأة تحمل ثمرة خبطتها لأن خيانة المرأة معناها طفل
غريب في العائلة ..

- وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب في عائلة أخرى .

- عائلة أخرى بعيدة عنا .

- يا سلام .. ألا تحس بأنك تستحق التسنى وأنت تقول هذا الكلام

الفارغ ؟

وعادت إلى الضحك وأردفت في دلع :

- وإذا كانت الأطفال هي كل المشكلة .. فيمكن أن نلجأ إلى موانع

الحمل ..

- هذا هو الاغلال بعينه .. تصورى زوجة تحمل فى حفية يدها
موانع الحمل كما تحمل أصابع الريح وزجاجات البارفان .. هل يمكن
لثل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت ..
- ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تحملون أمثال
هذه الأسبياء فى جيوبكم أحياناً .. ألا تحمل أنت الآن فى جييك أحد
هذه الـ

دعنى أفتشك

وهجمت على فجأة لتفتشنى .. وألممنى المفاجأة .. فتركها تعبت فى
جيوى وتخرج المناويل .. والحفظة .. وتفتشنى جيأً جيأً بدقة ..
وأخيراً سمعتها تقول فى رقة ولطف :
يا لك من طفل وديع صغير .. إنك لا تعمل سوى قطعة
شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت خدى بأصبعها .. واحمر خدائى من الحجل والإحراج
وشعرت بالغيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بجفاء :
- لا تظنى أفى ملاك إلى هذه الدرجة - إفى فى الحقيقة شيطان على
طريقى أحياناً ..

ونظرت إلى بجبت :

- أحقا أنا لا أصدق . ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم
شياطين ..

وأردفت فى دلع :

- وما دمت تأكلُ البونبون والشيكولاتة يا شيطانى .. فإذا تشرب هل
تشرب تليو ..

ومالت على الجرس خلفها لتدقه .

- سوف أطلب لك تليو

- واشتد غيظى من سخريتها .. ولاحظت هى أفى مغناظ .. فسكت

وقالت بركة :

- هل أنتك .. لماذا يؤلمكم يا رجال أن نقول عنكم أنكم قطة صغيرة وديعة ويسركم أن نقول عنكم أنكم وحوش .. أنتم أغبياء .. أنا في الحقيقة لا أحب إلا القطة الصغيرة الوديمة ..
- هذا سخوف جنسى ..

وضحكت ضحكة خليعة ..

- ليكن سخوفاً ماذا يعني .. إني امرأة نياية مصدق رقيقة ..
لا أحب لحم الحيوانات . وإنما أحب الحضرات الناعمة الفضة مثلك .
فقلت بغضب :

- أنا لست ناعماً ولا رقيقاً

- حسناً أنت خشن غليظ أيرضيك هذا أرجوك لا تحاول أن تكون حيواناً إن زوجي كان حيواناً كان طويلاً وعريضاً ..
وغليظاً كالثور .. وكان يخشع وهو يتكلم .. وكان يمز الأرض وهو يمشي . ومع هذا لم أكن احتمله .. كنت أشتم منه .. إني لا أطيق هذا الصنف من الرجال الذى يمتثل بمضلاته وشعر صدره .. انه يقرزنى ..
إني أحلم برجل من نوع آخر رجل رقيق المشاعر مساهم النظرات مثلك .. أرجوك لا تحاول أن تلبس أمامي فروة الأسد .. إنك تفقد كل سحرِكَ وتصبح شيئاً مضحكاً .

والحقيقة أنها أغاظتنى لدرجة أني بدأت أضحكك بعصبية . ثم بدأت هي الأخرى تضحكك .. وأخذنا تضحك نحن الاثنين في مرج ..
وماذا يهم إن كنت أسداً .. أو قطة .. ما دمت ..

وتلاقت أيدينا على المكب ونحن نضحك ونماست أصابعنا بعصبية .. وتثبت كل منا بالآخر . كأنه غريق يمسك بطوق النجاة .
وخفت ضحكاتنا شيئاً فشيئاً ولكن أيادينا ظلت متماسكة .. ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود .

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران .. أنظر
بعينين مفتوحتين الى النافذة التي تشبه بروازا أسود حول سماه مرقشة
بالتجوم .

وكان الهواء راكداً لزجاً .. والجو حاراً .. وقد تخففت من نيايى حتى
أصبحت أليس جلياًياً رقيقاً على اللحم .. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة
فى النوم ..

وفق التليفون إلى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى إعياء
ونبرات ممطوطة :

- ألو .. أنت .. ماذا تفعل ؟

- لا شئ .. صاحبة إلى الآن . ما الذى ييقك حتى هذه
الساعة ؟

- متعبة .. مريضة .. جسمى كله مهدود . إلى أحادئك من فرائى
ويطلى تؤلى الأما حادة . وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطانى
حقنة ..

- سلامتك ..

- حلمى . أنا خائفة .

- خائفة .. من ماذا ..

- أخشى أن أموت هكذا وحدي أو أنام فلا أصحو من نومي أبدا .
- ما هذا التخريف .
- البيت حولي يشبه مقبرة في هذه الساعة من الليل .
- أليس معك أحد في البيت .
- معي الطاهية المجوز وقد سافرت البلد .
- أمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تغلي بيتا وحدك حتى ولو كانت معك شهادة حقوق ..
أنت مجرم .. أهذا وقت النهاية .. أى بطى . إن التوبة ستعاودنى إلى خائفة .. أرجوك .
- ألم تسترعى على الحفنة ؟
- بطى .. بطى .
- سوف أحضر حالا .
ولبت نياى بسرعة وهولت خارجا .
وفي الطريق كان قلبي يدق بعنف في ضلوعي .. وكنت أسأل نفسي ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقاً .. وهل هذا هو الحب الذى يقولون عنه ..
لا أنكر أنى أشعر بسعادة في الجلوس الى جوارها وانتظر مواعيدها بلهفة .. وأرتب في ذهني كلاماً كثيراً لأقوله ثم أنساه .. وأشعر بخدر في جسمي وأنا ألس يديها .. وأصحو على شوق .. وأنام على شوق ..
وأعيش بانتظار نئى ما كل يوم ..
إن العقل يتعب . ما قائدة التفكير في كل هذا ..
وكنت أدخن آخر سيجارة في العلبة . وأقنع نفسي بأنه لا داعي للتفكير في نئى وأدق الجرس .
وفتح لى تمورجى ..

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها .. يحقنها بحقنة ثانية
ورفعت إلى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم
يجد شيئاً في الفحص .. وأن المص سببه احتقان بسيط في المبيض ..
وهي مسألة غير مهمة بالمرة . ويمكن ان تتشأ من البرد أو من الإفراط
في الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلاً .
وخرج الطبيب وبقيت إلى جانبها .. وكان وجهها .. سعيداً .
وكانت أساريرها مسترخية في راحة .. وقد زال الألم تماماً وحلت محله
شقاوة تبدو في عينيها .. وركنى فيها .. وها برتشان في خبت ..
وأمسكت يدي .

- يدك دافئة أدفاً من يدي .. هذا يدل على أن قلبك بارد .
- ويدل أيضاً على أن عقلك فاضئ .
- سوف أطلع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص
يا طفلي الصغير .

وغمزت لى بعينها ..
- أما زلت تحمل شيكولاتة وبينون في جيبك . أين كنت تنشطن
اليوم .

- لا ثنى يؤدبك غير المرض . لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة
ومذعورة مثل القار .. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذه الحقنة .
- اسكت انها حقنة لذينة جداً . لقد قال الطبيب انها هي الحقنة
التي يأخذها المساطيل .. وأنا الآن مسطولة .. وبسبوسة .. والدنيا
أمامى مثل حضن كبير حلو ..

- إنها ليست الدنيا التي ترزغل عنيك .. إنها الرجل الذي يقف
بجوارك .

- ها .. ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال .

- ماذا تحبين اذن .
 - أحب البتون والنيكولاته .. ها .. ها
 - إذا كانت حقنة مخدر واحدة تحبلك تتكلمين هكذا فإنك سوف
 تصبحين مدمنة خطيرة .
 - أنا مدمنة خطيرة لكل شئ .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة
 دنيا .. اسمع .. إن الدنيا مثل الأفيون تماما .. طعامها يصيب الجسد
 بالمخدر والهمود .. وروائحها النظرة تدوخ .. وشمها تسطل .. ونسيمها
 يدغدغ الحدود .. وعنبا يسكر .. وخرها يسكر .. وكل شئ فيها
 يسكر . الدنيا مخدرات .
 - أنت أخطر ما فيها من مخدرات .
 - إسمع .. إني أحيانا أكون نتوانة لدرجة أنني أنتهى أن أجبرى
 عريانة في الشارع .. لا لست عريانة تماما وإنما بالمايوه ..
 وأتمرخ على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجي .. وكان زوجي يقول
 عنى امرأة سافلة .. ويعطينى محاضرة في الأخلاق والآداب العامة ..
 أنتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون .. كل شئ عندكم عيب وحرام ومحل
 بالعرض والشرف الحياة كلها في نظركم شرف رجل .. أية جريمة
 عندكم تغتفر .. إلا أن يتلوث عرض أحدكم وتنسبى أخته عين
 أو تلمسها يد .. عمركم يضع في هذه الحرافة .. مغفلون .. أنتم
 تضعوننا في أضرحة وتعبدوننا وتبركون بنا .. ونحن بشر مثلكم تماما ..
 نتعرق على لمسة ونظرة وقبلة .. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنويا نحن
 روج وبودرة ومانيكير ونحول النوارع الى مراض إغراء تحت سمعكم
 وبصركم وأنتم تتأجبون بالفيرة لأنكم حتى لا تفهموننا اننا ليس
 لدينا فكرة إطلاقا عن حكاية العرض المقدس هذه .. ولا نفكر إطلاقا
 في أن نحى شفاهنا من القبلات ونحى أجسادنا من النظرات .. نحن

نفعل هذا لنضحك عليكم ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما
نحب ونستهي .. يا دلاديل .. يا بلهاه .

- أنت أسفل امرأة عرفتها ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت
سكرانة ومطولة لضربتك .

- يا طفل الصغير .. أفي لم أكن في وعي أبدا .. كما أنا الآن ..

- أنت تخرفين .. ولو كنت زوجتي لستقتك .

- لو كنت زوجتك . لما علمت شيئا عنى .. لأنك أبله .. ولأنفقت

عمرى في عبادتى .. وإغلاقى النوافذ والأبواب حتى لا تطولنى الشمس
ولضيعت حياتك وعقلك في الغيرة على مدامتك المحصنة .. فاطمة

ونظت الكلمات الأخيرة في خلعة وتبذل . فقلت لها في غيظ

- أنت أحمق زوجة في الدنيا .. هل هذا هو التقدم المشهود الذى

حللنا به في المرأة المتعلمة .

- لا بد أن نفعل شيئا لتفيقوا . إن الحياة أوسع وأجمل من هذه

النظرة التناسلية التى تمشون فيها ، والنظافة التى تحملون بها . وأنتم
أقنر خنازير .

واستبدى الغيظ فى تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهزها

يعنف .

- أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة .

وأقلت منى وأطلقت ضحكة هستيرية مجلجلة . وكان واضحا أنها

سعيدة جداً بهياجى وغضبي . ولكنى أسكتت نفسى وعدت إلى هدوئى .

- أنتم أطفال : أنزلكم الحقائق إلى هذا الحد . لا فائدة من

إصلاحكم .. حسنا يا شيطانى الصغير . لا تغضب .. نحن نساء

طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا نستهي ولا نعجب ولا نحسب

ولا نحس . نحن لفافة عرض موضوعة في صرة . نحن شرفكم المصون .

وضحكت فجأة في خلعة وقالت بصوت مخدر .

- نحن شرفكم .. ها .. ها .. أليس هذا مضحكا حرصكم على
أن تكون نحن شرفكم .. إن شرفكم أعمالكم يا مغفلون . وليس نساؤكم
أليس عجبا إنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة .. أه لقد
تعبت .. تعبت . رأسى بدأت تنقل .. حلمى .. إن دماغى نقلت
جدا .. لا تركنى أبى أخاف أن أنام فلا أصحو .. أه الفرقة تدور ..
ضع يدك على رأسى أليست دافئة ..

وأخذت يدي ووضعتها على جبينها . وتراخت أجفانها وبعد دقائق
كانت تروح في النوم . وأنا إلى جوارها .. وصدرها يعلو ويهبط
وأنفاسها تخرج مطرة دافئة

وكانت يدها ما زالت تثبت يدي .. وكانت تتقاذفى إحساسات
كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهي تنام في وداعة وقلة حيلة سلبنى
نورق وغضبى .. فأخذت أنظر إليها في حيرة وعجب . أين ذهب
البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم . أين ناست النار التى
كانت تتأجج في هذا الصدر .

وكانت تمسك يدي في لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رغمها عنى .
ونزلت يدي على خدها وعنقها ولمست صدرها ثم سحبت يدي بسرعة
ونمتت في بدنى قشعريرة .

وتذكرت ليلة دخلتى بزوجى .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة
لسانى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسكى .. وتذكرت الآن . وأنا
أحاول أن ألجم غريزى ..

كانت هذه هى الشهوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة . كاملة .
عارمة ..

ولا أدرى كم من الساعات ظللت أصارع نفسى وأنا جالس في

الكرسى أدخن .

ولكنى أفقت من هذا الصراع على صوتها فى الفجر يمس إلى
جوارى وعينها وما تبحثان عنى .. وذراعيها وما تضانى وتجذباني إلى
جوارها فى ضعف .

وسمعتها تهمس وهى تحتضنى :

- إنك رجل غريب .. إن جسمك بارد مثل الضفدعة .
وجذبتى من عنق . فى دلع .. وغمرتنى بالقبلات .



كل ما أذكره وأنا عائد إلى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى
قائلة : « انت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك . أم أنك ستكذب »
ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرة والحب هامة :
- أما زال فى نيتك ان تشق زوجتك إذا ضبطتها فى أحضان رجل
آخر .. أم إنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضاً .
ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم .. ولكنى تغيرت
كثيراً .. ولعل فقدت غوى .

ولعل شيئاً ما قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضاً لأن زوجتى قد
لاحظت ذلك وقالت فى قلق :

- مالك .. شكلك متغير .

لا شئ .

- تمان ؟ ؟

- أبدا

- الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون .

وأمسكت بالتليفون وضربت الفرة .. ورد الأستاذ عزيز فى شوق .

- أهلا يا أخى .. إنت فين .. أنا أبحت عنك من الصبح .

- كنت في مشوار ..

- طيب تعال .. أخطف رجلك وتعال .

ولم أفكر في سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه
الفرصة التي تبعثني عن بيتي قليلا

وخرجت لتوى . لأدق الباب على جدارنا عزيز .. وفتح لي عزيز
بنفسه . وقادني من يدي إلى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى
لماذا كان عزيز يبحث عن طول النهار . كانت برتينة قار حامية تدور
رحاها في الغرفة ..

وقدمني عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان ..
فلان . والفلان الوحيد الذي أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذي كان
يجلس في مواجهتي وهو رجل نحيل مصوص له شارب كث يغطي فمه ..
وجلست ألعب وأكسب . وأفرقر في سعادة كالقطة التي أكلت جيدا
ووجدت مكاناً ليئاً دافئاً تتمدد عليه ولم أكن أفكر في شيء .. ولم أكن
أرى شيئاً سوى الورق في يدي .. وأبو شنب الجالس أمامي كالصنم ..
يسبح في موجة من الدخان .

وسمعت صوت البيانو آتياً من الغرفة البعيدة .. كانت نافي تعزف

نفس المقطوعة التي عزفتها يوم عيد ميلاد ابني ..

وكانت الأنغام تأتي إلى أذني رقيقة حزينة ..

أين سمعت هذه الأنغام ؟ ..

تذكرت الآن إنها مقطوعة . الطائر السجين .. لفرناندو .

وكانت الأنغام حزينة جداً .. متعالية مترفعة .. كأنها بكاء إله في

سجنه .

وقطع عزيز الصمت قائلاً :

- أتعرفون لماذا نحب القمار؟

وقلت في هدوء وأنا ألب:

- لا أعرف.. ولا أريد أن أعرف.

وقال أبو شنب:

- إن ألد أوقاتى هي التي أَلعب فيها القمار.. إلى أنسى كل شيء

زوجتي.. وأولادي.. ويبقى.. وعمل.. وأسى ويومي وغدى أليس
هذا هو أجمل شيء في الدنيا

- نعم.. ولكنك تدفع بمك ثمن هذا النسيان..

- أتى أنسى حتى هذا أيضاً

وفي الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار.. ولكني كنت أحس أن
كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جداً بالنسبة لي. وهذا في
نظري سبب كاف لأحب أي شيء

وضائقي أن أفكر هكذا.. وفقدت شهيتي للعب.. فأهديت
الجنينيات العشرة التي كسبتها لعزيز. وجلست وحدي بعيداً.. أتفرج
عليه وهو يخسرها ثم يكسبها ثم يخسرها من جديد.. ثم يكسبها ثم
يخسرها ثم يكسبها.. ثم يخسرها ثم يكسبها.

وكان قد بدأ يصبح عصياً وأصبح يريد أن يتخلص منها
فيخسرها إلى الأبد.. أو يلقى بها من النافذة

واستبدت بي الرغبة في الضحك. فضحكت بصوت عال. والتفتت
إلى أربعة وجوه في وقت واحد. في دهشة.

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكاً إلى هذا الحد.
ولكنه في الحقيقة كان يبدو لي في تلك اللحظة مضحكاً جداً.

وأشد ما كان يضحكني هو منظرهم. وسحتهم المقلوبة.. وأعصابهم
المشدودة.

ماذا يريدون بالضبط ١٤ .

وماذا أريد أنا أيضا ١٤ .

وعاد الطائر السجين يفرد . بأنغامه الحزينة .

وانقبض قلبي بشدة كأن يدأ من حديد قد أسكت به واعتصرته .

حق كادت روحي تخرج مني .

وأحسست في تلك اللحظة أني في حاجة إلى صاحبي لأكلمها .

وأبكي على صدرها كالطفل .. وأقبلها .. وأحتضنها .. وأفقد وعيي بين

ذراعيها ..

واستأذنت من الجماعة لأتصرف .. ونظر إلى عزيز نظرتي إلى رجل

غريب الأطوار .. وقلت له مازحاً :

- إن جنيتها العنرة جنيتها منحوسة .. إنك لن تستطيع أن

تكسبها .. ولن تستطيع أن تغسرها .. ولن تستطيع أن تنفقها .. إنها

كاللعنة الفرعونية لا حل لها

.. وخرجت ..

وصافحت أنفي تسبات الصيف العليقة فأنرت أن أمشي وتركت عريقي

في الجراج .. وسرت استاف الهواء في خياشيمي وأهز يدي جانبي ..

وأنظر إلى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً في مشاكلة كأنه دنيا

صغيرة .. لا يفتيق منها إلا لحظات . يتلفت حوله ها هو واحد يعمرقه ..

وأهلاً وسهلاً كنت فيه . مضى وقت طويل لم ترك . لا بد أن نزورنا يا

أخي . ثم يعود فينطس في دنياه ويطلق باب قرته . ويبحر إلى الأعماق

البعيدة في نفسه .

ويبحر .. يبحر إلى أين !!

وتنوقت إلى نشاطي ..

إلى حبيبي .

كنت في حاجة إلى لحظة راحة . لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير
في أى شئ ..

ويبدو أنى منيت كثيراً لأنى بدأت أحس بألم في عضلات ساقى
فانجحت إلى بيت فاطمة .

وكان أول شئ فعلته حينما وصلت أنى رفعت الساعة وطلبت زوجتى
وقلت لها أنى سأنتظي لمدة ثلاثة أيام في سفر إلى البلدة لأعمال
ضرورية .

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تضحك بصوت خافت وحينما
وضعت الساعة قالت في سخرية :

- لقد أصبحت خنزيراً عريقاً في الخنزيرية . إنك تكذب دين أن
يطرف لك رمش .. هذه قدرة غير عادية .

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المراة وكانت تبدو
كحيوانة .. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئاً . وإنما أطالت أطافرها
وشحذت غرائزها .. وأعطتها القوة والجراءة .. والوقاحة وتركزت
المرأة لتقبلى في فى ..

وقلت أذكرها

- ماذا ستفعلن في قضية الوقف ؟

فأجابت ضاحكة :

- إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف لم تعد خرابة موقوفة على
زوجتك كما كنت زمان .. وإنما أصبحت ملعب كرة .. أليس هذا
انتصاراً رائعاً .. هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟

- لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً فقد تحولت من خرابة موقوفة
على زوجتى إلى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى
محاكمة أخرى لتحل الوقف من جديد .. إن المشكلة ما زالت باقية ..

ماذا تقول .. إلى أذبحك .. وأتغذى على لحمك إذا حدث
هذا إن القضاء عندي تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد
أخرى .. إن المرأة التى تنافسى لم تخلق بعد .. هل تسمع .
- هل أفهم من ذلك أنك تطالبينى بأن أكون مخلصاً ؟
- إلى أفهم شيئاً واحداً هو أنى أحبك .
- وهل معنى هذا أنك تكونين مخلصه لى ؟
هذه مسألة أخرى ..

وجذبتها من شعرها فى غيظ

- تعالى .. هنا ..

ونظرت إلى ثم ضحكت

- يا صغىرى .. إنك تصيح رائعاً حيناً تغضب .. إلى أموت فى
غضبك

وراحت تقبلى وهى تهمس

- إلى أغيظك .. أنيرك فقط أنت تعلم كم أحبك ..

وقبلتها فى شفتيها وأنا أقول :

- أنت امرأة مجنونة تماماً .. وأنا أحبك لأنك مجنونة .

- يا شيطانى .. يا طفل الصنوبر الجميل .. يا حبيبى .. يا جنونى .

- أحبك . أحبك . يا أحمق امرأة فى الدنيا

- وأنا أعبدك . يا أحمق رجل فى التاريخ

- يا حيوانة .

- يا مسكين . لماذا تبدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتستهزم . لماذا

تبدو عينك مسكينتين وأنت تكذب وتغطي وتأمم .. لماذا تبدو بريئاً تعساً

دائماً لماذا لا يفارق الأسمى والحزن عينيك .. لماذا تبدو طفلاً شقياً

يتياً . إن ضعفك يفقدنى صوابى . كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن

أسمعك . لماذا تبدو قلقاً مستتاً هكذا ماذا تريد . . ها أنا ذا بين يديك .
اقتلنى ولكن لا تنظر إلى هكذا إنك تنظر إلى كأنك لا تعرفنى . تنظر
إلى بلا عقل . بلا أمل . ما الذى يمتصر قلبك . ما الذى يوزع خواطرك
هكذا : ما الذى يبلبل تفكيرك ؟

وأخذت تهزنى بسدة :

- أنظر إلى . . إلى أنا . . لا تنظر هكذا كأنك تحملنى فى الهواء . .
حلمى . . حلمى . .

- ماذا أفعل وهذه هى حقيقتى ماذا أفعل . أنا مسكين
فعلا مسكين جداً جداً
وبكيت . .

وبكيت بحرقه على صدرها

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بفوطة وقد خرجت لتوها من الحمام .. وشعرها كله مبتل ومرجل ومعقوص إلى فوق . وهي تفكه وترحه وتضع فيه البنسات .. وظهرها إلى ناحيتي .. وأنا في الفراش يجثم على أنفاسي الملل .. وأتمنى من أعماق أن تتركني وحدي وتذهب إلى أى غرفة أخرى .

وسمعتها تدننن بفمها ثم تقوم وتذهب الى المطبخ . وتتفست الصعداء . ونسيتها تماما .. وغت . لم أتذكر أنها معي إلا حينما أيقظتني وفي يدها كوب من عصير البرتقال ..

وكانت عيناها طيبتين وديعتين .. وقد انطفأت منها الشراسة القديمة .. وحل محلها خضوع أليف .. وناولتني الكوب .. وقبلتني في خدي وقالت في رقة :

- أتعينى يا حلمي .

فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصاباً :

- نعم .

وشربت الكوب في جرعة واحدة

ونظرت إلىّ في عيني ولكن أبعدت عيني عنها ..

وقالت في نبرة حزينة :

- أنت لا تحبني .

فقلت في هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضي في الكذب :

- نعم ..

- إذن لماذا فعلت كل هذا

- لا أدري .

وسكنت لفترة طويلة ثم قالت في ألم

- ألن نلتق بعد . الآن ..

ولم أعرف بماذا أجاب

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها التكبر يتضعض أمامي ثم

يتهاوى في بكاء مر ..

وغيمقت من خلال دموعها :

- ألم تشعر معي بلذة

فقلت في صدق ..

- شعرت باللذة التي لم أشعر بها أبداً في حياتي .

- إذن لماذا تتركني هكذا .. وماذا كنت تريد لتحبني .. وتضعضت

الكلمات في فمها من جديد .

ولم أعرف بماذا أجاب .. ولا ماذا كنت أريد منها ولا ماذا أريد

من نفسي ..

- هل أنا قبيحة .

وأزاحت الفوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء .

وبحت بعيني في جسمها . ذلك الجسم الذي كان يفتني وبصيصي

بالدوار كلما لمست .. وأحطتها بذراعي .. ولكني لم أحس بشئ

إطلاقاً .. وبحت في عينيها عن المرأة الجريئة المستهرة الوقعة التي

كانت تنفض بالتحدى ولكنى لم أجد غير امرأة منكسرة .
وخيل إلى من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات .
ولم أعرف ماذا أحبته فيها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيها الآن .
كل ما أعرفه انى كنت أشعر بالملل .. وبجاجة شديدة إلى أن أصبح
وحدى .

أما هى فكانت تنظر إلى فى أمومة وحنان وتربت على كفى قائلة :
- أنت مسكين ..

وتبكى وتمسح دموعها وتمغم .
- ولكنى أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبداً .. أبداً .. ولم يحدث
أن أحببت رجلاً كما أحبتك . ولا أعرف ماذا أفعل لتحبى .. ماذا
أفعل ..

وكفكت دموعها وهست فى حيرة
- أريد أن أعرف ما هو الحب .. منذ أيام كنت ألهو معك كما ألهو مع
أى رجل .. كنت فى نزوة سقاوة .. وكنت أنسى .. وأقضى وقتاً
كعادي .. دائماً .. وما أكثر الأوقات التى قضيتها كامرأة مطلقة فاضية
ليس وراءها مسؤوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتي تنتهى .. وتنتهى
معها نزواتها .. ولكن ها أنذا الآن أمام إحساس آخر تماماً .. وقت
لا يريد أن ينتهى .. ونزوة لا تريد أن تسبغ .. ماذا حدث لأحبك ..
وما هو سر هذا التعلق الذى يعذبى .. وهذا أنت جالس أمامى ..
ضجر ملول .. تتأفف .. وتكاد ترفضنى

- ولهذا تحبى .. انه ليس حباً .. ولكنه كرامة مجسوسة . وأنونة
مهينة . أنت تريد أن تمضى فى هذا الوقت على أمل أن تنتهى إلى
نهاية تنصفك .. إنه ليس حباً لى .. ولكنه حب لنفسك ..
- أنت مسكين .. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة . إنى

أحبك .. ماذا أفعل لتصدقني .

- أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا أنت مدمنة دنيا .. مدمنة
مخدرات اسمها الرجال .. أليست هذه هي . فلسفتك وكلما تك بالحرف
وها أنت تقولين الآن أنك تحبينى وتذوين حبا ..
- إلى أحس بإحساس جديد .. لم أعرفه أبدا
- أليس من الطبيعي أن نشك دائما في الأشياء الجديدة وخصوصاً
حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا
والحق أنى كنت أنمر بشئ ما في شخصيتها لا أرتاح إليه . شئ غير
طبيعى ..

لم تقو اللذة الجسدية التى جمعنا ثلاثة أيام متوالية على أن تنقلب
على هذا الشعور .. وظلت علاقتى معها بالمجد وحده بينا روحى
تهيم بهيمة نافرة ..
وكانت لذاتى يعقها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى
يسوقنى ويجرفنى كالذابة ..

وكنيت أفيق أحيانا .. فأنتى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة
وحينا ضعفت فى لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن
عذابى .. خجلت ..

خجلت جداً كأنى نهرت أمام إنسان غريب لا أعرفه ..
وأحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها
رأت ضعفى هكذا خلصة .. وساورتنى الرغبة فى الفرار ..
ولم يعد وجودها حولى يسعدنى .. وإنما أصبح يقضى بى إلى توتر مبهم
لا أدرى سببه .

أنا مسكين نعم مسكين .. مسكين ..
ولكننا إنسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفى الخاصة ..

وتنكس في أدراجي .. وتبث في نفسي .

أنا لا أريد عطفها .

وكانت تبكى في هذه اللحظة .. ولكني لم أكن أسمعها جيداً .. كنت
أسمعها بأذني فقط

ولكنها لم تفقد الأمل . وسمعتها تقول في مرارة

- هذه أول مرة في حياتي . يفعل بي رجل ما فعلت ..

وضايقتني هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمي أنها كانت مناورة
منى .

وعادت تقول في مرارة :

- كنت أنا التي ألهو بالرجال .. كنت أنا التي أرفضهم . وأكسر
قلوبهم .. ماذا حدث لي ..

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة .. وغابت فترة
طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرأة ..
وهي تقول في جفاف :

- أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك .. أنت رجل مثل أي
رجل .. اني أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

- هل صدقت حينما قلت لك أني أحبك .. إنني أضحكك عليك ..
وتلك عاداتي دائماً حينما أريد أن ألهو .. فأنتم لا يعجبكم إلا الكذب ..

لأنكم أنتم أيضاً كذابون وعواطفكم كاذبة ..

وسكتت فجأة لتقول :

- أنظن أن هناك في الدنيا شيئاً اسمه حب ..

وأجبت في إخلاص :

لا أدري ..

- هناك ليالٍ كذلك التي قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله .. ولا يوجد شيء غير هذا .. أما بقية الأنبياء التي يروى الناس فهي أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. المواقف أكاذيب .. الإخلاص كذبة نستبدون بها لتكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة .. التي عرفتها ..
وأحسست أيضاً أنها تكذب .. وأنها أيضاً كانت تكذب .. وأنها دائماً تكذب ..

وإن هذا الشيء الغير حقيق فيها هو الذي ينفرد
وإن هذا الشيء هو المسافة التاسعة التي ظلت قائمة بيننا والهوة التي لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتتوق بيننا أو أصر الحنان والمودة .. ونظرت إليها هذه المرة في عطف .. فقد كانت هي الأخرى مسكينة .. وكانت تمسح شعرها في المرأة وتمضغ اللادن في صوت سموع .. وتطرقع بأسنانها وهي تمضغ .. لتحدث صوتاً ..
وكان سكوتنا ثقيلاً كريهاً .. وكان يشوش على أذانتنا أكثر من الضجة ..

وقت من الفرائس .. وبدأت أرتهى نياي ..
وحينما نظرت إلى المرأة .. لم يعجبني وجهي .. كان يبدو بليداً وتذكرت اللحظة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت إلى وجهي في نفس المرأة .. وكان يبدو منسحوناً بشيء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة

كان أجمل بكثير من الآن ..
ونظرت إليها .. كان وجهها هي الأخرى ممثلاً ...
واقبعتنا إلى الباب في وقت واحد ..

كان كلانا يشعر برغبة في الخلاص .
وعند الباب تصافحنا في برود .
ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هي مزيج مختلط مشوش من كل المسرات
والآلام التي أحسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ...
وبقينا لحظة صامتين ...
ثم انصرفنا بسرعة ...
وخرجت لأمنى بدون وجهة .. وأنا أصر في داخل بحيرة لا نفع
لها ...

وتذكرت مبعادى مع الخواجة م ترى ... التاجر العجوز في
البورصة ...

ونظرت إلى ساعتى .. كان باقياً على الميعاد نصف ساعة ...
ومشيت في هدوء في طريق إلى البورصة ...
ترى ماذا يريد منى الخواجة م ترى ...
وفي البورصة كان م ترى واقفاً ينظر في ساعته بعصبية وينظر إلى
الباب ... وحبنا رأى تهلل وجهه وأخذنى تحت إبطه ... وخرجنا .
وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض في الصعيد ..
وقلت ..

- الأحوال بخير يا خواجة ...

فضحك وهو يجاوبنى

- أنت دائما تنادىنى يا خواجة .. الظاهر إنك تعتقد أنى خواجة
صحيح ..

- إن مظهرك خواجة فعلا

واستغرق في الضحك ثم أردف :

- يا حبيبى أنا صعيدى ابن صعيدى .. يظهر إنك لم تذهب إلى

الصعيد أبداً .. إنهم هناك يسمون الذى يلبس بدلة خواجه .. لقد
عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا
نكافح معاً هناك أيام الشباب ..

وأخذنى إلى مكتبه .. وأشعل سيجاراً .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة
- لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشارك فيه سوياً
إنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف
جنيه .. ما رأيك

ولم أجاب .. وإنما أخذت أفكر وقال هو ..

- طبعاً انت فرحان بالفقداين التى ورتها .. وكل هيك أن تنام عليها
مثل كل الأعيان .. إسمع كلامى إن الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن
مكسبها الآن تبيان .. وخصوصاً لمن يؤجرها مثلك .. إنى أعرف
الصعيد وأحواله .. إننا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قتها .. الفلاح
يستأجر الأرض الآن ولا يسد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط لأنه
مدین بكل شئ .. مدین يسقى الأرض لصاحب واپور الماء ومدین
بتسميدها لوكيل شركة عبود ومدین بزراعتها لبنك التسليف حتى
محصولها باعه سلفاً بالبخص للمراى على سلفة عشرة جنيهات يعيش
بها .. وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النيل زراعته ويفرقها ..
ماذا تستطيع أن تفعل انت أياً المالك مع مثل هذا الفلاح .. إن كل ما
تقدر عليه هو أن ترض عليه قضية إخلاء .. ثم نأخذ حكماً بالإخلاء ..
ثم لا يجد الفلاح حلاً سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يستأجر
عليك الحط وعواد .. وهذه آخره الأرض .. ومشاكلها ..

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. إنه ما زال يستثمر مهارته كل
يوم وهو ذاهب إلى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح ام لا يبيعه .. فإذا
رفست يرجلها .. عاد أدراجه ولم يبع شيئاً ..

وأنت تريد ان تضع رزقك وعمرك وأرضك في يد هذا الفلاح .
وتنتظر أن تصبح غنياً .. كلام فارغ . اسألنا نحن .. نحن جبرنا من
قبل كل هذه الأشياء .. إن سر الفنى في التجارة .. وليس في
الزراعة .

- وماذا تريد أن أفعل .
- تتخلص من هذه الأرض النحس وتستغل معنا في المكتب .
- وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف التجارة
الخارجية وقبورها

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :
- نبيع أدوات الاستيراد نفسها .. ونتاجر فيها .
فقلت في تردد :
- ألا يعتبر هذا عملاً غير قانوني ؟
فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف ..
- وأى شئ حولك قانوني . إن كل شئ غير قانوني . إن المال
الذى تعيش منه غير قانوني ..

إن المائة فدان التى ورثتها عن المرحوم والدك .. كان شراؤها على
يدى . وكانت نقودها من ألاعب البورصة التى قنا بها بالاستشارك مع
سماسرة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية . والحكاية كانت
لها صدى فى كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرة .. لقد كتبنا عقوداً
بأكثر مما غللك من أرصدة قطنية . وهذا تزيف .. وهكذا ارتفعت
الأسعار بالكذب .. وكسبنا ألوف الجنيهات والفدادين .

ويظهر أنه لاحظ المرح الذى بدا على وجهى فأسرع يقول :
- وهذا حال التجارة دائماً ليس فى التجارة شئ اسمه قانون
التجارة فى حقيقتها هى تنظيم النصب .. والإنراء بعقد الصفقات على

الورق فقط بدون شقاء . وبدون عرق ..

حيثا يكون لك مكتب استيراد وتصدير فإنك سوف تشارك في ربح
المصنع وبيع الدكان .. دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على
مكتبك وتحرق عقوداً أليس هذا أفضل من المتاعفة مع الفلاحين
المعدمين في الصعيد .

إن النصب في كل مكان حتى في الزراعة .. وأنت حيثما تقاضى
فلاحاً مديناً لا يملك سوى ذراعيه وتحفرجه من أرضك . ألسنت نصايا ؟ !
إن النصب في كل مكان .. يظهر إنك جديد على أمور الدنيا .

إن الدنيا يا حبيبي نصب في نصب
فكر في المشروع الذى عرضته عليك .. لقد كنت أحسب أباك
وأنتفاد بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتعاون معك .. سوف أتركك يومين
ثم أكلمك مرة أخرى ..

وصافئنى . وأوصلنى حتى الباب ..
وخرجت .. وكل شئ يدور في دماغى كالدوامه .
وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجة مئرى صدمة
لأعصابى .

فقدت الكثير من نقى .. وإيمانى .. دفعة واحدة .
وأحسست بالقسوة الشديدة ..
كان كلام الخواجة مئرى فيه قسوة سودت الدنيا في وجهى .
كان فيه اتهام لوالدى .. ولتروقى .. وللنعمه التى أرحم فيها
لا فائدة .. الدنيا نصب في نصب . تماماً كما تقول فاطمة ..
هل صحيح أن الدنيا نصب في نصب ..
الحق أنى لم أجد حجة أقيمها على كلامه .
أنا نفسى كنت أقوى إثبات لهذا الكلام .. فتد ثلاثة أيام وأنا أخون

زوجتى مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح ..
 ومع هذا فقد كنت أشعر ان كلامه كذب .. كذب . الدنيا ليست
 شراً كلها .. ولا أنا شرير كلى ..
 القلق يهزنى فى داخلى .. أنا أتعذب ..
 كلنا نتعذب .. ونبحث عن حل على قدر فهمنا ..
 وذهبت إلى بار ماسبيرو .. وطلبت كوباً من النبيذ . وكانت الوجوه
 حولى تثبت لى إننا جميعا مساكين .
 كان كل واحد يحملى فى الهواه .. كأنه يطارد ذبابة وهية .
 وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف ، وأحصى الوقت الذى
 تستغرقه الزجاجاة لتفرغ .. وأحصى فى دماغى عدد الشوراع وعدد
 البارات .. وعدد سكان القاهرة . وعدد سكان العالم .. وما يشربه
 الناس من السم كل ساعة ..
 وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكى
 يشربها سكان العالم كل ساعة ..
 ألا يبعث هذا على الإنتفاق .
 وأخرجنى البارمان من تصوراتى .
 وهو يملأ كوب النبيذ قائلاً :
 - أتعرف سم يصنعون هذا النبيذ الفاجر . لقد رأيت العنب بنفسى فى
 بوردو . كل حبة مضيئة .. كأن الشمس معبأة فى داخلها
 - أنا لم أت هنا لأضرب الشمس .. لقد جئت لكى أخذ ضربة على
 رأسى .. اجئت لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديية .
 وضحك البارمان وقرب منى صحناً به جامبون .. وهو يمس :
 - وهذا جامبون طعمه كطعم القبيلات .
 ووقف ثلاثة من النسخاذين يعزفون البيانولا أمام البار وبدأوا

يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش في
قبضته وكان وجهه مدعونا بالسبيداج وعليه لطعتان حراوان : وكان فمه
يضحك . ولكن عيناه كانتا حزبتين جداً

وكان طعم الجاسيون ألد من طعم القبلات في فمي . وكانت الموسيقى
سخيفة . ولكن طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسي .. وكان البارمان
واقفاً أمامي يلوى شفتيه في إشمزاز .

- ما الذي يعجبك في هذه الدوتة .

- إن مفعولها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر ..

- إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنغام
البيانولا أنت في حاجة إلى عادة هيفاء عيونها سود .. تنظر إليك
وتنظر إليها وإلى شيء هنا في قلبك يأكله من الداخل .

- حيناً يكون هناك شيء في قلبي يأكله .. فإن كل شيء اشربه سوف
يتحول إلى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذاً .. لن أكون في حاجة
إلى من يعصر لي عنب يورده ويعيه لي الشمس في زجاجات . سوف
أكون أنا الشمس التي تنع في كل الزجاجات .. احمد ربنا يا خوجة
على أن قلبي فارغ .. وإني أكل بعضي فلهذا جئت إليك .. ولهذا
يأتيك الزبائن كل يوم . وتجد رزقك
- أنت فيلسوف يا أستاذ حلمي .

- أنظن ذلك ..

- وهذا مفعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة في المخ . إن كل
الفلاسفة متخرجون من عندي ..

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنني كنت أريد أن أخرج
بسرعة . واختفى البارمان . ونسيت أن أسأله .. أين يذهب المهتدون
في الشرب .. هل يصبحون أساتذة في الفلسفة .. أم يصبحون مجانين ..

وكان في الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة .. وكان يتحرك بصعوبة .. ويسعل سعالاً جافاً .. ويصب في جوفه الكأس بعد الأخرى ..

وحينما كنت أعود في المساء إلى بيتي .. ويداي في جيوبى .. كنت أسأل نفسى .. ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده هكذا ..

وكنت أرى في الظلام وجهه القرابى المريض .. وأسمع سعاله الجاف وأتذكر كلام الخواجة مئرى .. بأن كل الناس وحوش يفترسون بعضهم البعض . ولا أصدقه .. لا أصدقه أبداً .
إننا نقتل أنفسنا
نحن ساكين

ودخلت البيت .. وغمرنى الضوء الشديد في الصالة .. واستقبلتنى زوجتى منهلة .. وسألتنى عن حالة الزراعة في البلد ..
وتذكرت أنى كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا أتجنب النظر في عينيها ..

- كل شئ على ما يرام ..

- وماذا فعلت مع علوان ..

- ومن هو علوان هذا

- الرجل الذى أحرق الذرة لقد حسبت أنك حضرت الحادثة .

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ما حدث من علوان .. وحادث إحراق الذرة ..
فقلت بارتباك :

هذه الحكاية .. لقد سووها حينما وصلت والمساءلة الآن هادئة

تماما ..

وقالت وهي تضم يديها إلى صدرى ..

- الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك .

ولم يبد عليها أنها تشك في شئ .

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى ان مدام عزيز عندنا ..

وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر الى الإسكندرية ..

وصاحت : نانى نانى .. لقد جاء حلمى ..

وخرجت نانى . وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفها وشاحاً

أحمر وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من

العقيق

وتصافحنا وعادت إلى مقعدها وكان في يدها بلوفر تستغل فيه ..

وكانت تنحن على التريكو وهي تعمل ويتدل شعرها كالبارفان فيخفى

وجهها

ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة

تختلج في اضطراب

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يضطرب

وراء تلك الأهداب ..

وقلت لأخرجها من صحتها

- لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية في الدنيا

فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خداه .. ونظرت الىّ في

امتنان .. ولم تتكلم ..

وقالت زوجتى ..

- إنها ترسم أيضاً ولها أنشغال كأنها رائعة .. إنها فتاة أنظر هذا

مفرش اشتغلته لنا .

- رائع .. رائع .. أين تعجدين الوقت لعمل هذا كله ..

وصمتت نائى لحظة قبل أن تحيىب ثم قالت وهى تنظر الى الأرض
- ليس فى الدنيا شئٌ أكثر من الوقت .. إن لئدى دائماً وقتاً طويلاً
طويلاً أريد أن أتخلص منه .
ورفعت رأسها لتتظر إلى نظرة خاطفة ثم عادت تعمل فى سرعة
وعصبية .

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينها ..
أرى الوحدة .. والقرية . والاستسلام الحزين الكامن فيها
وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها
ولم أعرف ماذا أقول بالضبط
ولكن كنت أتمنى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت إلى
التريكو ..

وقامت زوجتى لتعضر الشاي ..
وقت إلى البيانو وفتحته .. وبدأت أعيث فى مفاتيحه .
- أجل شئٌ فى الدنيا أن يكون الإنسان موسيقياً .. أنا كنت طول
حياتى أتمنى أن أكون موسيقياً كانت هذه أمنية ..
وأخذت أعيث برهة ثم قلت :
- ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة ..
وفوجئت بهذا السؤال .
- أنا !!

وترددت لحظة .. ثم قالت فى وداعة وهى تبسم ..
- كنت أتمنى أن أكون ولدأ فقد كنت أرى الأولاد حولى يفعلون
كل شئ . وأنا والبنات نستأذن لفعل أى شئ .. حتى إذا أردنا أن
نشرىب ..

وجاءت زوجتى بالشاي .. وأخذنا نشرب فى صمت .. وطلبت من

ناني أن تعزف لنا شيئاً ..
وجلست ناني لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكناً
على البيانو أنظر إلى أهدابها وهي تختلج ..
ولفقى النغم في موجة من الحزن .
وسألتها لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً .. وبكل هذا الحزن .
فقالت أنها لا تدري ..
ولكنها حيناً رفعت وجهها كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من
الدموع ..

كانت الشمس تنام إلى جوارى في شربط دافئ ممد بطول
السريـر .. وكنت أغمض عيني وأحاول الاسترسال في الأحلام الرقيقة
التي أحلمها ولكن الضوء السديد كان يؤلم جفوني ويدفعني إلى أن
أفتحها وأفركها وكانت زوجتي إلى جانبي . تنكلم كلاماً كثيراً
لا أفهمه ثم سمعتها تكي وتقول بصوت متهدج :

- أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك .. ولكن ما جدوى هذا
الحزن .. منذ شهور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء هل
أعاد حزننا الحياة إلى الميت

وأفقت تماماً على كلماتها .. وتيقظت .. ومسحت على وجهي ..
أفكر في كلماتها كلمة .. كلمة .

هي تعتقد إذن أن عزوفى عنها سببه حدادى على والدى .
ولم أعرف .. هل أفرح أم أحزن هذه الطيبة وهل هي طيبة أم
غفلة !! ..

لو علمت زوجتي بكل ما حدث في الأيام الماضية .. أنظـل على
طبيبها أم تبصق في وجهي ؟ !
ونمت في تلك اللحظة أن أقول لها كل شيء .. وأن أكاشفها
بالحقيقة ولكني جيت .

ودخلت الخادمة وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..
- سيدى . سيدى .. البواب يخطط على شقة عزيز جارتنا من
الصبح ومفبش حد يفتح ..
- لازم خرجوا
- مش مقول ياسيدى .. عزيز مسافر والست لا يمكن تخرج
الساعة دى .

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة :
- صحيح . لا يمكن نانى تخرج فى الساعة دى .
وهولت إلى الباب .. وأنا أجرى خلفها والخادمة تصرخ
وراءنا .. ووقفنا ثلاثتنا ندق على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد ..
ومرت دقيقتان . وسمعنا صوتاً خافتاً يشبه الأنين .. واصفر وجه زوجتى
وابيض حتى أصبح فى لون التنديل الأبيض .. وأخذت تمز الباب فى
عنف ..

وترامى الى آذاننا صوت حركة بطيئة .. ثم وقع خطوات تقرب ..
ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب .. وكانت نانى واقفة . أجفانها ثقيلة
وارمة وتحت عيناها غضون زرق .. وهى تنظر إلينا فى دوار النوم ..
كأننا خيالات فى أحلامها

وكان جسمها الصغير يتطوح ..
وأخذتها زوجتى بين ذراعيها ودخلنا .
كانت الغرف كلها نظيفة منظمة .. وكل قطعة من الأثاث فى
مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأياجرة مضية .. وعلى الكومودينو إلى
جوار الفراش .. لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة .. وكتاب
لبزارك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..
كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوماً لتعالج

الأرقى .. فنامت والأباجورة مضيئة .. إلى هذه الساعة من الصباح ..

وهذا كل ما حدث .

وأفرخ رعينا ..

وجلست إلى جوارها ألتقط أنفاسى .. وأنا أشعر بالخرج .. لقد
سرت منها النوم الذى توسلت إليه بالأدوية ..
ونهب زوجتى لثمد كويأ من الشأى ..
وقت آنا إلى النافذة ألوذ بوحدى من إحساس نقييل بالذنب .



كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المثومة .. وأنا أقود عربتى
بسرعة فى عصر ذلك اليوم . وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى ..
وأبتنا وناتى .. وكنت أسمع نأى تضحك وهى تداعب ابنى .. وأتساهد
صورتها فى مرآة العربة .. وشعرها المرتب فى بساطة . وعينها العميقتين
جداً .

وجلسنا فى كازينو على النيل .. وكان النيل فى الفيضان . والمياه
عالية كيطن الحامل .

وكنت اشعر بالسعادة وأنا أنظر إلى الملهج الحمراء وهى تجرى وتجرى
كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تميل إلى المغيب .. والألوان تتغير بسرعة . وتأخذ
معها وهج النهار . وتغطس فى بحيرة رمادية ..

وكانت العهارات على الكورنيش تنطمس رويداً رويداً وتذوب فى
ذلك الغمغل الرمادى . فلا يبق منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطئ ..
مساحة قائمة بلامعالم

وكنت أفتيق من الحسدر الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على

صراخ ابني وهو يجذب أمينة من نوبها ويشاور بيده الصغيرة إلى
المراجع في آخر الكازينو.

وأخذته أمينة .. ونهبت به إلى المراجع .. وهو ينط ويقفز .
وبقيت وحدي مع ناني .. وكنت أنظر في عينيها وما يزدادان اتساعا
مع الغروب كعيون القطط .. وبيعتان في نفسي أكثر وأكثر ..
ذلك الإحساس الغامض بالعمق .. وكنت أفكر في زجاجات الأدوية
المنومة على الكومودينو .. وسألها فجأة :

- هل تتعاطين متوماً على الدوام ؟

- أحياناً حينما يطول بي الأرق ..

- ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكتت ونظرت في وجهي مترددة وقلت مشجعاً

- ليس هناك في الدنيا شيء يستحق أن نهم به .. كل شيء ينتهي ..

الماضي يفوت . والحاضر يفوت .. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل

يفوت هو الآخر .. فيم القلق والأرق .. ولماذا نهم بأي شيء .

- انت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .

وعادت تنظر في وجهي برقة وتردف ..

- ومع هذا فأنت نهم وتقلق . من أجل أشياء كثيرة صغيرة

أحياناً أليس كذلك ؟ ؟

- نعم أحياناً لأنكر

- اترى انه لا فائدة من الحكمة .

- ولكني لا أحب أن تتعذب مثلي .

- أهو اهتمام آخر .. هل أنصحك أنا أيضاً وأقول لك أن الماضي

يفوت والحاضر يفوت .. وكل شيء يفوت .. ولا داعي للاهتمام

والقلق بأي شيء أو بأي إنسان .

وسكنت حيناً رأتني مستلهماً حزيناً .
كنت في الحقيقة محتاجاً إلى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت
أواسي .. نفسي بلا جدوى وضحكت ..
ولمعت عينها على نبرة اليأس في ضحكى ونظرت إلى .
كانت تبادلني نفس الإحساس المرير بالحيرة
- ماذا نريد بأنفسنا
- نعم ماذا نريد بأنفسنا
وأردفت في حرارة دون أن تفكر :
- أنا أريد أن أحييا
- وحياتك التي تمسيتها
- وحياتي ١١ أي حياة تقصد .
وسكنت في يأس . ولمعت عينها بغشاء رقيق من الدموع . ثم قالت
في صوت خافت :
- ربما اطلعتك على حياتي يوماً ما إلى أكتبها أحياناً أكتب من
فرط اليأس .. ومن فرط الوحدة .
وتأرجحت على شفيتها ابتسامة واهية ..
وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة
وتلاقت نظراتنا .. وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعض .. ولم نتكلم .
وقطع صراخ ابني صممتا وكان يجري نحونا وينط ويقفز .
ومن ورائه أمينة .
وجلست أمينة .. وجلس ابني إلى جوارها وارفع صوت الملاهي
وقناجين الشاي .. وثرثرة الطفل .
ولكني ظللت متشددتاً إلى نائي طول الوقت .
ولم يتغير الأمر كثيراً حيناً عدت إلى البيت ..

وحينا استفرقت في اعمال مكثي لعدة أيام متوالية لم يتغير الامر كثيرا .

ظلمت مندودا طول الوقت بحبال خفية .. بدنيا اخرى غير دنيا
عمل اليومي ومصالح الطعام والشراب وفرثرة كل يوم . هي دنياها
وجودها .

ظلمت مائلة امامي حاضرة في ذهني طول الوقت .
وحينا القيت بنفسي في فراشي آخر الليل كنت أسأل نفسي اية رابطة
من حديد تربطنا . واتذكر علاقتي بفاطمة .. ان الامر مختلف تماما .
ان وجود نافي الى جوارى يفتح لي عالما ايضا امشي فيه .. امشي
امشي . ولا اتعب .

اشعر بروحي تصادقها وتأوى اليها كما تأوى الى ظل شجرة بدون
هدف . بدون غاية .

واشعر بالاغوار العميقة خلف عينيها . تتكشف لي عن احساسات
اعانيتها .. وآلام اعيشها واعرفها .. وكأني ادخل بيتي .. واتجول في
غرفتي .. واجلس تحت ضوء مصباحي الاخضر ..
اشعر برغبة في الافضاء . وافشاء مكثوني اليها .. وقض اسراري
بين يديها .

وتخيل الى احيانا ان بعض كلماتها تصدر عني .. وكأن الحاجز الذي
يفصلنا سقط . وانفتحت فيه نفرة تتصل منها وتتخاطب وتخرج .
احساس غريب يحجم عليه الامان . لا تستعجلني فيه رغبة .. وانما
يتصل في نهر من الحنين دائم الجريان .

هل كنت اجسم لنفسى هذه المشاعر وانا نائم بالليل ؟ ؟
هل كنت احلم واتخيل ؟
لا ادري ..

ولكنى حيناً تيقظت في الصباح كنت اهل هذه الشاعر معسى الى
مكتبي .. واعدود بها الى البيت .. وانظر بها في صندوق الخطابات ..
وانقب وافتح كل الخطابات بلهفة .. وابحث عن امضائها . وقد استولى
على شعور بأنها لابد مرسله الاوراق التي تكتبها عن حياتها . لأعيش
معا .
كنت اريد ان اعيش حياتها معا .



كان الخواجه مرمى يتحدث في التليفون بلهجة انتصار .. وحينما
وقفت في النافذة انتظره .. رأيته ينزل من عربة كاديلاك آخر موديل
ويقتحم المكتب .. ثم يقف .. ويمشق قوامه وتلف حول به نظرة ظافرة
ويصتف .

- ما رايك الان يا استاذ .. لقد رفضت ان تشترك معنا في مكتب
الاستيراد . وهذه اول خبطة لنا بعشرين الف جنيه . ما رأيك تعالى
افتح دفاترك وقل لى ماذا كسبت من زراعة البصل في هذه المدة
بصراحة ؟

ولم انكر انى لم اتلق مليا واحدا من البلد .
ولم انكر ان المكتب الهندسى الذى اديره فاشل .
ولكنى انكرت بشدة أفى نادم .. وأنى شاعر بأن نصف عمرى قد
ضاع .. فانا غير مقتنع بالعمل الذى يعمل به وانا مازلت غير مقتنع به
وليست لدى فكرة المساهمة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس .
- الحكاية ليست حكاية فلوس .. اشكرك . هل تسمح وتتازل لى
عن فلوسك .. وارضك واطيانك وتسريح من عنائها .. وتعيش سعيدا
بتقافتك .. ما هى الحكاية اخن يا صديق .

- الحكاية هي ان اعيش كما اشتيتى .. اكسب على طريقي .. واهمل العمل الذى لا أقتنع به .

- وهل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟
ولم اجب ..

وقال الخواجه مبرى :

- انا اكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك . انا لا نعيمنى احوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات .

وخطبى على كتنى قائلاً :

- اسمع ما زالت امامك فرصة للاشتراك معنا فكر .. انا لا اريد ان اخسر كشرىك . انا اتق بك واحبك .. اسمع كلامى .. الارض نحس .. اخلص منها انت لم تخلق للزراعة
وخرج مبرى .

وحينا كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة .. وانا انظر اليه من النافذة كانت كلماته مازالت تترع أذنى ..

هل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد .. هل انت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب .

والحقيقة انى لم اكن مقتنعا باى شىء من هذا انا لم اخلق لهذه الاشياء .. لم اخلق للزراعة ولا التجارة ..

والحقيقة انى لم اكن اعرف لاي شىء خلقت .
ولم اكن اعرف ماذا أريد بنفسى .

لم اكن اعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى اسميه الحياة . هى وقوفى الان فى مكتب هندسى فانتسل لا امت اليه بصلة .

واغلقت دفاترى واغلقت النافذة . ثم اغلقت الباب بعدم اكتراث
وزلت السلم .. وتركت نفسى اضرب فى الطريق من شارع الى شارع
فى شبة مترخية الى بيتى
ونلقفتى الخيالات التى كانت تصاحبى منذ الصباح .. وتذكرتها
وتذكرت عينها .. وتلهفت على حديثها
وحينا وصلت البيت .. كان اول شئ نظرت اليه هو صندوق
البريد .. وهناك كانت حزمة من الاوراق تنام فى الصندوق وعليها اسمى
وعنوانى .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانترعتها فى لهفة وصعدت السلم
ونيا . ثم دخلت غرفتى واغلقت الباب خلفى وفتحت الاوراق كانت
منها وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال :
وألقيت بنفسى فى مقعدى : وبدأت اقرأ ..



اول شخص اعى عليه هو شقيقى الكبرى والوحيدة واول
حادث اذكره هو حادث بين اخى وزوجها .. كل منها يشتم الآخر
ويلوح بيديه فى غضب .. ثم اخى مغمى عليها وانا اصرخ بأعلى
صوق .. وسكان العارة يهرولون لاسعافها وكان ذلك فى قنا مقر
عمل زوج اخى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاما
وبعد ذلك وعجت على ابى الطبيب الكبير الذى يحشاء كل فرد فى
البيت ويرتجف منه .. وانا لا اجسر على الوقوف امام المرأة لا منشط
ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام واغلق بابه من الداخل واسرح شعرى
وجو البيت الملى بالمنوعات .. ممنوع من الخروج .. ممنوع الوقوف فى
البلكون .. ممنوع الذهاب لمنزل خالى الا بصحبة احد اخوى .. ممنوع
الذهاب الى السينما والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت

حراما . لان ابي شاهد مرة فيلما عربيا . وكان رصاصة في القلب .
فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجتنا معه لان البطلة التي كانت
مخطوبة احبت شخصا آخر غير خطيبها وسمحت لنفسها في يوم عقد
قرانها ان تغفل بحبيبها في الشرفة تبتوح له بحبها . وهنا ثارت نائرة
ابي . وظل يلعن السبا والمبادئ التي تنادى بها . . واختتم نوره بان
حرمها علينا . .

ولكنه بالرغم من نسدته وصرامته . . كان طيبا حنوننا يمرض الى
جوارنا اذا مرضنا . . ويكي ليكائنا . . ويطعمنا بيده . . ويغنى لنا . . على
عكس امي الجافية القاسية وهي تفرج وتدخل على كيفها . لا تشغلها
الا شئوننا ونزواتنا وتبايها وزباراتها وصديقاتها . ولا يهمها ان كنا
نموت او نعيش .

واذكر مرة . . بل عدة مرات . . دعواتها بان يأخذنا الله . . انتين
انتين . . اى والله . . كانت تصرخ بأعلى صوتها . . لو كان ربنا يريحنى
وبأخذكو . . الى يميني خيركو . . وتطلعا كل انتين في خشبة 11
لن انسى هذا اليوم . . ونحن ننظر الى بعضنا في صمت ونرمقها في
كراهية .

وكانت امي هي الصخرة التي تنحطم عليها صلابة ابي ونسدته . .
كان يقضى النهار في الصراخ والشجار معها . . فاذا احتواها الفرائس
بالليل ذابت نوره وذاب شجاره وتحول الى حمل وديع تهدده على
صدرها وتأمره وتلهو به كيف شادت . .

وكنا نعلم نحن الصغار . . ان امي تلهو بابي . . وغنى على كيفها . .
كنا في اشهر الاجازة الصيفية نسافر كلنا الى العزبة ويبقى والدي في
القاهرة للعمل في عيادته . .

وفي العزبة كانت امي ترح على كيفها مع عسى العمدة الوارث

الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل واطلاق النار فى الهواء
واصطحاب امى بالليل والنهار . وضحكاتها ترن فى الحقول .. وخلف
الابواب المغلقة بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا ينحصر على باننا ان ابى يعلم من
هذا الامر شيئاً .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخناقة تهرأها ارجاء البيت
وابى يصرخ بانه سبق ان نهبها الى سلوكها المشين فى العزبة فلم ترتدع
وتقادت فى علاقتها الآفة .. وانه لا يجد امامه وسيلة الا الاطلاق ..
الطلاق فى سكون حتى لاتضار سمعة العائلة .

وكان معنى هذا الطلاق ان تظل امى كاهى فى البيت .. ويزورنا هو
كالعناد فى ايام اجازته على الا تقع عيناه عليها ويكتفى بحمرانها من
الميراث والمعاش .. حفظا لكرامته ..

وكان هذا يعنى فى نظر امى اشد عقاب يمكن ان يفرز بها . وانه
لاهمون عندها ان تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على ان تحرم من
ميراثها فلم يكن لها هم سوى جمع المال من اى طريق .. ولو انها
وجدت سوقا لتبيعنا فيها لباعتنا بأبخس الاثمان ..

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد
الدخول الى غرفة النوم .. وصاقي يا لبن .. حليب يا قشطة .. والى
كان .. كان ..

وتحول الاسد الى حمل وديع بعد اول قيلة .. وانتهى كل شئ ..
وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى .. وحاله معنا .
وكنا نفتخر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته .
وأحيانا حينما كان يحممنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى
عينه تتندى بالدموع .. وهو ينظر إلينا .. ويضمنا الى صدره . وكان

فى تلك اللحظات يخبر موضوع الحديث .. ويبدأ فى إعطائنا درساً فى الوطنية .. ويفنى لنا .

يا مصر يا أم الدنيا حيك فى القلب سكن ..

ونحن نفنى معه .. وهو يدير وجهه الى الخلف ويمسح بدموعه ..
كم أحببت أبى .. كم أحببته .

وبلغت السادسة عشرة فى فبراير وبدأ أبى يلوح بوجود امتناعى عن الذهاب الى المدرسة وبقائى فى البيت .. ولم تمنع والدتى على شرط أن يوافق أبى على زواجى ..

وتقدم لى فى هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشرة سنوات .. يتيم
الاب والام له ايراد خاسرى غير وظيفته مستقيم لا يشرب الخمر
ولا يلعب القمار وسمته فى عمله نظيفة . فقبله أبى وجاء به لرؤيق .
ورأيته شخصاً عادياً ليس فيه شئ يلفت النظر .. أما هو فقد أعجب بى
جداً .

وامتدح جمال وجهى وعينى ونسعى الأسود الطويل وفى الصغير
وأستأنى المرسومة .. ويوم البسنى الدبلة لم يفته ان يبدى إعجابه
باناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى ..

وكنْتُ سعيدة باطرائه الجمالى .. فهذه أول مرة اسمع فيها انى جميلة
جذابة .

وداعتنى الآمال ..

فى المستقبل سوف استطيع الذهاب الى السينا . وسوف استطيع
الضحك والفناء بصوت عال على كفى .. وتريح نسعى فى المرأة
ووضع الأحمر على شفتى .. والخروج الى الشارع .. والذهاب الى
المصيف ونزول البحر . والسفر .. والسهر وألف متعة .. ومتعة ..
وجلس خطيبى يتحدث مع أختى . وفهمت من حديثه أنه ينتظر

الترقية .. وأنه ينتظر ان يعاونه والدى كطبيب كبير متصل بالسرائى ..
وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط
وسقط فى نظرى .. وسقطت أنا أيضا فى نظر نفسى
ان الجميلة الفاتنة كانت الترقية .. ولم تكن عيوى ..
وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة .. كان خطبى أيضا يبحث عن
صفقة .. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى لم يكن
يريد التقرب منى .
وغيضت كطفلة جرحت فى أحلامها ولويت بوزى .. وكرهته ..
وكرهت الزواج .

وحدث فى ذلك الأسبوع ان جاءت اختى من البلد غضبانة من
زوجها وأصرت على عدم العودة فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر
من هذا مع زوج لا تحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيق
الصدر فى سن أبيها
وقامت القيامة فى البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أخسى .
وصراخ أند وتهديدات من والدى .. واجتماعات مع خالى تعقد وتفرض .
وبعد خمسة عشر يوم وافقوا على الطلاق على أنه درس فقط يعطونه
لزوجها لكى يتأدب .. وفلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد
وأن يستكنها اعترافا بخطئها بالتنازل عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست
حاملًا وكتبت له ما اراد والقتة فى وجهه ..

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهى حتى انفجرت قبيلة غيرت
نظرتنا للأمر كله .. فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق
لزوجها ومن نفس البلد نساب جميل من سنسها كان يتردد على
البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والدى امامها الا أن وافق على الزواج

ليطفى على الخبر ماجور .

ونار خطيبي وبدأ يلمح بكلام جارج .. وثرث في وجهه وطالبته
بفسخ الخطبة ولكنه رفض .. لا لأنه يحبني .. ولكن لأن نتيجة
الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد .
وألمحت على فسخ الخطوبة ففسخها وشعرت براحة عميقة ليست
بعدها راحة .

وأذكر في تلك الليلة . واخى نائمة بجوارى .. أنها سألتني في حزن
وهي تدخل في حضني عن رأيي في زواجها وطلاقها وكلام الناس
فأجبت وأنا أكذب .. أنت معذورة .. لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع
رجل لا يحبه .. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة . لما أرسل لك هذا
الرجل لإتقاذك .. والزواج بك ..
فتهدت اخي وقالت :

كم تعذبت .. ما أرحم الله . لقد عوضني خيرا بعد كل
هذه السنين التي صيرتها . فأني أعبد زوجي وأشعر من فرط سعادتي
أني أحلم .. واني سأفقي على الحقيقة المرة . اسعد ان قلبي لن يحتمل
هذه السعادة

أبعد هذا الكلام كنت أستطيع البوح لها بما أنا فيه .. ولكني كنت في
الحقيقة أنام .. وكنت خجلى . وكأني أنا التي أحمل فضيحتها
وكنت أريد أن أبكي .. وأتكلم .. وأنسكو أحزاني .. ولكن لمن
أنسكو أحزاني . لأني ؟ .. وهي عذوق .. وعارها هي الأخرى على
رأسي .. لأبي المسكين ولديه من عذابه ما يكفيه ويكفي العالم
لم يكن هناك مفر ..

كان لا بد أن أتعذب وحدي .. وأحمل أنا هذه المائلة وحدي .
وكانت النتيجة أني مرضت .. وضعفت .. ونقص وزني في شهور الى

أربعين كيلو جرام .. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى واستعيت
جدا ومخيفتين ..

وكان والدى متفيا فى تلك اللحظة فى مهمة طبية بالمثيا . وأمى
سارحة على كيفها تنط كل يوم الى الحربة ثم تعود سكرانة تنفى فى
غرفات البيت بصوت أجش مبتذل .

وأنا نائمة فى فراشى .. حرارنى مرتفعة . ورأسى تكاد تنفجر من
الحمى .. وقلى يطحنه احساس ذليل يأس .

ويلغنى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من حلم
وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء يفحصونى ..
ثم يرفعون رؤوسهم الى أبى ويقولون فى نفس واحد .. مغيش فايدة
فيصرخ أبى مذعورا .. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا فى فراشه
والنموع فى عينيه .

ولم يصدق أنه كان يحلم .. فقام لغوره ليكتب الى يسألنى عن صحى
ويستحلفنى أن أرد فوراً وبخط يدى ..

وفعلا كتبت له فى الحال .. وكنت متأثرة جدا فظلمت أبكى طول
النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين احساس عنيف بالحزن
واحساس عنيف بالسعادة بالسعادة لأن أبى يحس بى ويشعر بى الى
هذه الدرجة .

وفى الصباح فتحت عيني على صوت أبى وقد جاء فى أول قطار ..
وسمعت لغناته وهو يصعد الدرج ويتأدى بصوت عالى وبلفنة .. نانى ..
نانى

وجريت وفتحت الباب .. فتلقفنى فى حضنه وظل يقبلنى ويبكى ..
وأنا أبكى .. وأضع رأسى الصغير على صدره .. فبهدهنى كفرخ
الحمام .

يا أمي .. يا حبيبي .. يا ملاكي .. يا الهى الرحيم ..
عرفت في تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من أمها
لماذا تشل يده كلما رفعها ليهدم بيته .. لماذا يضعف ويفقد المقدرة
ويصبح كالطفل السليب الأرادة .. لأنه بحسب أولاده وبيته .. لأنه
يحبنى ..

وغفرت له ضعفه .. بل لقد أحببت ضعفه .. وعشت ضعفه .
ألسنت أنا ضعيفة ؟ أنا .

وبدأت الأقدار تسج لنا أحزاننا جديدة ..
أنجبت اخق من زوجها الجديد بنتا .. وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم
أجهضت .. وبعد الأجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان
بالندى رغم انها كانت في أوج شبابها ولم تعد الثلاثين ..
وأجريت لها عملية استئصال للندى .. وقال الأطباء ان العملية لن
تنفع .. وانها جاءت متأخرة .. وان السرطان سيعاودها في خلال سنة .
ومضت شهور من الانتظار المفزع .. انتظار الموت ..
وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهى تضحك فيخيل لى أنها جنة
تضحك . وأدخل في غرفتي وأيكى بحرقه .. فلم يكن فى امكاننا أن
نقول لها الحقيقة ..

لقد تميت ان يصيبني الله بدائها ويأخذنى لاستريح .. فلم يكن
لدى نوى ألتحق به . أما هى فكان لها حب تعيش من أجله .. ورجل
تعبه .. وأبنة جميلة تمسكها .

كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى ..

ولكن الموت لا يختار ضحاياه

واقتربت نهايتها

وكانت آلام العظام تفرى جسدها .. وكانت تصرخ وتتشبث بيدي

هاتفه في ذعر ..

لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .. أنى أفضل ان تطعننى
الآنم .. ولا أموت ..
لا أريد أن أترك زوجى .. حبيبى .. سمادى .. لا أطيق أن تأخذ
امراة اخرى منى .

وتمسك بزوجها وتصرخ .

أحلف لى أنك لن تزوج بعدى .. احلف أنك ستعيش تذكرى ..
لا أطيق أن تلمس يدك الحنونين امراة اخرى .. لا أطيق ان تلمس
شفتيك نسفة اخرى غير شفتى .. ان هذا يقتلنى الف مرة أكثر من
الموت ..

وزوجها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج ..
أيدا .. أيدا .. مدى الحياة .

ثم يخرج الى الصالة وينهار باكيا ويقول .

لم أعد أطيق عذابها .. ان ألامها تقتلنى .. أتمنى أن تموت
لتسريح .. ولكن كيف تموت .. ان موتها يعنى انتهاء حياتى أنا أيضا ..
يارب .. وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت فى حاجة
الى سهر وقريظ مستمر .

وطلب زوجها منى ومن أمى أن تبقى معها فى البيت .. لتتبادل السهر
عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلاهة بحجة أنها لا تستطيع ان تترك
البيت والأولاد .. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها بالسهر الى
جوار مريضة ..

ومن هى هذه المريضة .. انها بنتها !!

وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..

وأن اسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأهاتها .. أهه .. أهه .. وأن

أتلقى لهنّاتنا ونشقاتنا على صدرى .. وإن أموت الى جوارها بالحياة ..
وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصبت انا بانتيار
عصبى .. فأخذنى خالى الى الأسكندرية .
وسافرت وأنا كالمنهولة ..

وبذل خالى وزوجته والعائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى
من حزن وصمى وانطوائى .. دون جدوى . ولم يكن أحد منهم يعلم
مدى ما أعانيه ..

كنت كلما الغمضت عيني رأيت أختى ميتة وزوجها يحتفظ بجنتها فى
المزل وبأى أن يدفنها لأنها لا تستطيع فراقه . وتشبث به وهى ميتة .



ومرت سنة وذهبتا لرأس البر لنصطاف .
وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام ..
ولا حظت خلالها انه بدأ يغير نظرتة لى فبعد أن كان يعاملنى كمنسقية
صغرى بدأ ينظر الى كامرأة ..
ولم أفهم ما يقصده ..

وحينما عدنا الى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته .. أخذوا يباركون
لى .. على ايه ١٢ وصمعت صديقات أسمى يباركن لها فى التليفون ..
على .. ايه ..

راسى تقول لى أنه شئ طبيعى .. وأنه أحسن زوج لى .. أنا .
أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبده واستحلفت بحباها
وعذابها الا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل .. مستحيل .
مستحيل .

افى أموت بلا زواج ولا أتزوجه . مستحيل ..

واجتمعت العائلة حولي .. ليقولوا كلهم في نفس واحد ..
مستحيل ليه ..

أنت أختي به من الغريبة .. واللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش
وحساتفوق البنت لمن .. البنت الحلوة الصغيرة .. بنت أختك اللى
حتترمط في أيد اللى تسوى واللى ما تسواش ..

وهو ماله .. اخلاقه ممتازة .. وفلوسه بالالوف .. وانسانيته ..
وعقله .. وحنانه .. وادى اننى شفق ازاى كان بيعامل أختك ..
وصرخت مستحيل .. مستحيل .. انتم بجانين .

ولكنهم احاطواي في حلقة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنق
وسلاحهم العقل .. والمنطق .. وكلامهم معقول واسوأ ما فيه انه
معقول ..

انه شخص ممتاز فعلا .. وأنا أولى برعاية بنت أختي من الغريبة .
ولكنى لا أشعر نحوه بشئ ..

ومن ادراككم انه لم يكن يعامل أختي هذه المعاملة الا لأنه يحبها
وكيف أسلب أختي راحتها وهى في قبرها وأخذ زوجها
مستحيل .. مستحيل .

مستحيل ليه انها حينما تحس في قبرها ان بنتها .. وديعتها ذهبت
الى يد أبنية .. وأن أختها هى اللى سوف ترعاها فانها سوف تفرح .
أنت مغفلة .

مغفلة .. ربما ..

ان أسوأ ما في كلامهم انه معقول ..

يارب ساعدنى ..

أبى . أبى حبيبى

أبى يقول لى بسذاجة .. تزوجيه .. انك أولى به من الضريب .. انه

انسان طيب .. وبنته سوف تكون بنتك .
أخى يقول لى .. تربي حتى تعرف شعورك .. انها ستكون آخر
فرصة لك ..
أمى سافرت الى الاسكندرية لعود ومعهما البنت .. بنت أخى .
آه من البنت ..
انها حينما رأتى . القت بنفسها على صدى واحتضنتى فى حى
وغمرتى بالقلبات فى كل مكان من وجهى وعنى .. وطلبت ان تنام
معى .

وحينما أخذتها فى حضنى لم يغمض لى جفن طول الليل . كان كلامها
يفت كبدى .. ويقلب تفكيرى رأسا على عقب . وجاء هو . بعد أسبوع
وفاتحنى فى موضوع زواجه بى .. وصارحته بكل ما يدور فى رأسى ..
قلت له أنى لست كسقيتى .. بل أنا على عكسها فى كل شئ .. فى
الطباع والاخلاق والصورة وانى لن استطيع ملء الفراغ الذى تركته .
ونئى آخر أهم من كل هذا .. أنى لا أحبك كما كانت تحبك هى ..
صحيح احترمتك واعزك لأنك شخص مثالى وأحبك كأخ .. ولكنى
لا أشعر بخوك بشعور الزوجة لزوجها .

فقال لى :

- انى اكفى الان بهذا الحب .. وسوف اترك للزمن ان يجعلك تحبينى
كما تحب الزوجة زوجها .. أما عن طباغك واخلاقك .. فاعتقد انى
افهمك أكثر من أى شخص آخر . وسأعرف كيف أعاملك ..
وأعرضك كل ما فاتك .. أما عن الصورة فصحيح انت تختلفين عنها
كثيرا .. وليس معنى هذا انك وحشة .. ولكن لك جمالك الخاص بك
أما عن الفراغ الذى تركته اختك فانا لم أتقدم الا بعد نفق فى نفسى
وفى شعورى ..

وقلت له :

- أنا متأكدة انك لم تطلب الزواج منى الا من أجل بنتك . والحالة
مها كانت فهمي أرحم من امرأة غريبة ..
فقال في نبرة تأكيد :

- انت مخطئة في تقديرك .. فأنا أولا وقبل كل شئ أطلبك لاني
معجب بك .. وانت تعلمين اني أعيش مع اخي الأرملة . وانها تخدمني
وتخدم بنتي .. ولا يدفعني الى الزواج بك حاجتي او حاجة بنتي الى
الرعاية وإنما يدفعني حيي لك .

وهنا دخلت علينا البنت وقالت في نبرتها الحلوة :

- مالكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده
بتقولوا ايه .. بابا ؟ .. بتحب طنط زى ما مجبها .. أنا مجبها قوى ما
أعرفش ليه ..

- وأنا كمان مجبها يا حبيبتي .

- خلاص ما دام بابا بيعبك وانا معنديش ماما .. ليه منكوش
ماما .. انتي معنديش ولاد .. وانا معنديش ماما .. يبق أنا بنتك وانتي
ماما

فاغرورقت عيناى بالدموع . وتلففتها في حضني ..

وقال هو في صوت حزين :

- ألا يكفيك اسمعاد ثلاثة أشخاص احباء وأعزهم المتوفاة لكى
تشعري بسعادة كبيرة .

فأعلنته موافقتي دون وعي منى .. فقط اشتكرت عليه تغيير السكن
اذ لا يمكن العيش في نفس النقة التي عاشت اخي وماتت فيها
وهكذا تزوجت الاسناذ عزيز .. زوجي .. وبدأت مأساتي الكبرى .

قلت لعزير انى لا أستطيع الدخول فى شقة اخى المرحومة وعلى
عفشها .. فوعدتنى انه سوف ينتقل الى شقة أخرى .. وسوف يشتري
لى عفشاً جديداً .. ويعطى العفش القديم لأمى .. وطلب منى الاسراع
فى اعداد ملابسى الجديدة .. وبدأنا نتشاور فى الأثاث الذى سنجده .
وبعد عقد القران خرجنا تمشى بالليل .. وعند عودتنا فوجئت به
يشدنى الى غرفة النوم ويخلقها بالمفتاح .. وطلب منى حقه الشرعى .
وفوجئت بهذا التصرف من جانبه .. وخصوصاً بعد أن شرحت له
حالى وحاجتى لتغيير الشقة والجو القديم لتستريح أعصابى .
ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة ..
كنت ما زلت انظر اليه كأخ احترمه وأعزه ..
وكانت مفاجأة ارتبكت لها قداما .
وتم اتصالنا فى نفس غرفة النوم التى كانت تنام فيها الميتة .. وعلى
فراشها

ولم أشعر بلذة ..

لا شئ سوى احساسى بالاشمزاز منه وهو يخلع ثيابه .. واشمزاز من
نفسى . وأنا أنام وأمتثل لكل ما يطلبه .. وفضول وبعثة .. واحساس
بالبلل .. وبالقرص .. ثم احساس مرير بالذنب فى حق اخى وأنا

أسلبها أعز ممتلكاتها .. وأطلب المتعة في فراشها الذى ماتت فيه ..
ونام هو ..

وظلمت أنا صاحبة انقلب على فراش من الشوك واحلق في الظلام
وشيح الميتة امامى .. وصوتها يجلجل في اذنى .. وهى متشبثة بذراع
زوجها تصرخ .

- أحلف لى انك لن تزوج بعدى يا عزيز . احلف انك ستعيش
تذكرنى .. لن أطيق أن تلمس يدك المهنوتين امرأة اخرى .. ولا أن
تلمس شفتاك شفتين غير شفتى . إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من
الموت .

وأنا أصرخ وأبكي الى جوارها واولول . يا حبيبى يا أخشى ..
سوف تعيشين لزوجك ولبنتك . لن تموت أبدا سوف أموت أنا .
وانتبه لأجدنى على الفراش .. انا بلحمى ودمى والى جوارى زوجى
عزيز نفسه . وجسدى ما زال يبلله العار من أناره .

ويصحو زوجى ليذهب الى الشغل ثم يعود قائلا انه تعب من البحث
عن شقة اخرى بإيجار قديم ومخلو رجل .. ويقترح على تغيير نظام
الشقة وفتح المساط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر
وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن نبني فيلا ..

- وهل ستبنى فيلا ؟

فيقول .. نعم .. لقد اشترت الأرض فعلا .. وبدأت أتفق على
رحمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها اذا انتقلت
الى شقة بإيجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة
والفيلا فى وقت واحد .

- وهل تنتهى من بناء الفيلا قريبا ..

- فى ظرف سهور قليلة يا حبيبى . ان الحكاية لن تحتاج أكثر من

شهور قليلة نصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء ...
وهكذا صبرنا ..

وبقينا في تلك الغرفة الملعونة .. لم ينجدد شئ سوى عذابي الذى بدأ
يوم بعد يوم ليصبح عذابا رهيبا
يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب الى المدرسة ..
وأعد لزوجى فطوره ..

ويذهب الى عمله وأبدأ أنا فى الإشراف على البيت .. ويتملكنى
الشعور بأنى لست فى بيتى .. وإنما أنا زائرة غريبة .. لصة .. كل
حجرة تذكرنى بأخى .. كل مقعد .. كل قطعة أنات ..
إنه لم يتزوجنى أنا .. إنه لم يتزوجنى أنا .. إنه تزوجنى لأنى من
رائحة اخى التى يحبها . تزوجنى ليمتلئ بى حتى يبق فى نفس البيت ..
وفى نفس الغرفة .. ونفس الفراش الذى يحبه ..
ما أنا الا نصيح .. أما الحقيقة التى غلّوه وغلّأ قلبه وغلّأ البيت وغلّأنى
أنا أيضا فهى جسم الميتة وأنفاسها

أنا لصة سرقت زوجها منها .. بل هى اللصة التى سرقت نفسى
منى . سرقت حقيقى .. ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها .
وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر . وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر ..
ويتسع الجرح فى داخلى .. وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه
بحكم الواجب .. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور ..
وهو لا يشعر بالمذاب الذى أعانيه .. وإنما ينور لبرودى .. ثم يكف
عن الاهتمام بى وبرغباتى .. يأخذ فى معاملتى كمن استقرأ بالمال ..
يأخذ منه حقه الترعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه .. لا يعبا
ياشمزازى .

ويتحول فى نظرى الى حيوان

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز .. والانسان اللطيف الذى تعودت ان
احترمه فلا أجده .

إن المعاملة السرية والعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش ..
وحرص كل واحد على شعور الآخر .. ونجاوب النفوس والأرواح ..
هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيق والحب بين زوجين .. أما المظهر
اللطيف فى التسارع وقى الغرام وعمل البلاج فإنه لا يكتفى ليجمع من
الرجل زوجا .

إن الرجال يتغيرون كثيرا حينما يخلعون ملابسهم الرسمية .
ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول اننا سوف نحب أزواجنا بمرور
الوقت .

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان .
لم يكن زوجى ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذى تعودت ان احترمه
وحينما خلع ملابسه .. كان مجرد حيوان .
ولم يحدث شئ بمرور الوقت .. لا حب .. ولا حق تصوره .. وإنما
ازدادت كراهيتى .. وازداد تفورى .

وكنت أشعر بالضيق كلما أقتربت منى ليأخذ ما يسميه حقه الشرعى
وكنت أحيانا أضغط على نفسى لأرضيه .. وأحيانا أعلنه بأنى غير
راغبة وكان حينئذ يثور .. ويقول انه بشر وبدنه له عليه حاجات ..
لمن أين يقضى هذه الحاجات .. فأقول أنا أيضا وأصرخ بأنى بشر ..
وبدنى له على حق أنا الأخرى .. ولا أستطيع أن أرغمه على طعاص
لا يحبه .

وكان يحدث دائما إذا ضغطت على نفسى وامتلئت لمطلبه .. أن أنور
بعد هذا لأتفه الأسباب .. وأبكى .. وأصرخ .
وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه .. وامتنع من أجلى .. فإنه

كان ينور وينفجر بعدها لأتفه سبب .

وكنت حينئذ وحيث تبلغ ثورته أشدها أشعر براحة شريرة في داخل . . لعلها أخق الميتة هي التي كانت تتهيج في داخل بعضابه . . ولكي كنت أشعر شعورا آخر واعيا بالطف عليه . . والمزن من أجله . وهكذا كنت أنراوح بين احساسات متناقضة .

وبدأ يلجأ الى أدوية وأساليب طبية ليظل في فترة اتصاله . . وكنت في تلك الحالات أشعر بلذة . . ولكن اللذة كان يعقبها قهـ وصداق وآلام نفسية حادة . . وشعور بالنفور والاضطرار من جسمي لأنه يظلذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحى وتنعم نفسى . . ودون أن أشعر برضى القلب .

وكنت أحتقر جسمى . . وأعاقبه وأنار منه . . وأنظر اليه باشمزاز كأنه جسد عاهرة باعته في سبيل قوتها ومصروف يدها . كانت اللذة تنتهى دائما بنكد لى ولزوجى . . وأدرك انه لا فائدة . . فأسلم نفسه ليأس مرير . . وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدى بها وظائفه بدون شعور . . بدون تمهيد . . بدون مقدمات .

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم .

وفى بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض في صدرى بمجرد سماع أذان العصر . . ودخول الليل . . من خوف . . ومن احتال طلبه شيئا . وفى أحيان أخرى كنت أنهار وأبكى . . وألطم خدى . . وأشد شعرى . وكثرت رؤى لأخق في الأحلام .

وكنت أراها في مرة تغسل ثياب زوجى . . ومرة تحيط له جواربه أو تطعم بنتها وتمد لها النساى واللبن . . وتلبسها مريلة المدرسة . كانت تروح ونحى حول . . وفى عقل . . وفى خيالى . . وتعيش حياتها

البيتة العادية .. التى هى حياى .. وأنا أنظر إليها .. والى نفسى كأنى
غريبة تماماً .

وبدأت أغرق آلأى فى القراءة .. كنت أقرأ لزفانج . وأطالغ
مارسيل بروسى .. وبعض كتب بلزك قرأتها مرتين وثلاثة . وأحياناً
كنت أقرأ الجرائد القديمة . وأحياناً كنت أكتب ..
وأحياناً كنت أنلهى بالعزف على البيانو .. وكنت أحب المقطوعات
الحزينة الياسة مثل .

ولكنى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ .. وكنت أمزق
الأوراق التى كتبها .. وأمزق الكتب .. وأمزق شمعى .. وأبكى فى
حرقة وصمت .

كل هذا كلام فارغ ..
إن أنوة المرأة هى كل وجودها .. وحيناً تفقد المرأة جسمها وروحها
فلا شئ يعوضها .. لا شئ .. لا شئ أبداً
وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأفراس المنومة .. لأنام .. وأقتل
سوس القلق واليأس الذى يأكلنى .
كنت أئنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن ..



وأخيراً وصلت غرفة النوم الجديدة .. وجاءت معها أمى .. وغيّرت
نظام البيت .. وبعد يومين تشاجرنا وسافرت غضبانية لأنها تريد آخذ
بعض مفارش أخفى بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتى .. ورفضت
بشدة .. وقد أحسست مدى الفارق بيننا .. هى كل تفكيرها محصور فى
آخذ مفرستين أو ثلاثة .. وأنا أعيش أبكى وأصرخ وأحرم على نفسى
حياة وسعادة هى ملكى وحق لهرى أن آخذ اشتيتها يوماً ما ..

وأدركني رحمة الله وظهرت على بوادر الحمل .. واسترحت من اتصالى بزوجى بضعة شهور أنجبت بعدها طفلا جميلا شعرت بالفرحة لأول مرة حيناً نظرت في وجهه .

وسافرنا الى بور سعيد .. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأننا التأمت جراحها ولكنه التأم من السطح فقط لأنها كانت تزداد عمقا يوما بعد يوم .. ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة . ولاحظت ان حال زوجى ساءت .. وأن أعصابه أصبحت لا تحتمل أى شئ .. وأنه أصبح ينور في وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يحملني في وجهى وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس والجنون .. وكان يحيل لى ساعتها أنه سيقع فاقد التطق ..

وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكب بسبب الحالة الاقتصادية .

وكنت أحاول بنسى السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة .. إذا هونت عليه المشكلة أتهمنى بأنى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية لا يحسنى الا نفسى .. وإذا حاولت التفكير معه . نهزنى وقال : أنى طفلة فى تفكيرى .. وأنى لا أفهم شيئا .

وجاءت الست الوالدة .. لا لتزورى ولكن لتقبض حوالى الخمسمائة جنيه تعويضا عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب إهمال البلدية . والمحقبة أن هذه الكباين كانت قد استرحتها من نقسود والذى دون ان يعلم .

وقلت لها إنى معذورة وفى حاجة لقرشين .. وأن حالة البيت تعبانة .. وان زوجى عصبي باستمرار بسبب توقف الأعمال فى مكتبه . فوضعت يدها فى محفظتها .. وأعطتني ثلاثة جنيهات .. ولم أعرف

ماذا أقول .. وبماذا أشتتها وألقيت في وجهها النقود .
وقعدت أصرخ وأبكي . وزوجي يصرخ في وجهي .. دى مش
عيشة .. ايه القرف ده .. أنا ذنبى أيه أستحمل التكد المستمر ده ..
أتنى أغتافق مع أمك .. تقوم هى تسافر ببسولة .. وأنا اللي أشرب
المر هنا .

وأبكي قيزداد صراخه .
وبدأت أفكر جديا في وضع حد لهذا العذاب .
كان الطلاق غير مجد .. فقد فات الأوان وتحولت الى عجوز صفراء
كالحة في سن الثلاثين .. امرأة ذاهلة تائهة لا تصلح لشي
ولم تكن لي حياة أخرى أحيها أو بيت آخر المأ إليه .. أمي
تكهرني وأنا أكرهها . وسوف تطردني من بيتها إذا لجأت إليها .
وإذا طلقني زوجي فلن يكون أمامي حل سوى الانتحار .
كانت حياتي كلها يأس في يأس المخرج الوحيد فيها هو الخسوع
والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل في نفسي كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح .
اتحرك في فراغ مفرغ .. وملل قاتل .. وأنام فألبت في فراشي بلا حركة
لا أنا بالناغة أو بالساحية .. وإنما راقدة في حمول شنيع .. أقوم من
رقادى لأرقد من جديد ..

وبدأ يشنقني فلا أurd .. ويسبني بألفاظ بذينة فلا أجابوه . ويشور في
وجهي ولا أنكلم

وإذا به يصرخ فجأة
إننى ساكنه كده ليه .. عاوزه نفرسيني .. حد مصطلك عليه .
عاوزاني أتجنن .. عاوزاني أطلقك وأخلص .. طيب أنت طالق .
وروقف يطلب والدى في التليفون ويبلغه أنى طالق .

ونام ليلتها في حجرة أخرى .. وبث أنا أفكر في مصيرى ..
لا شئ أصبح يجدى خضوعى أصبح يثيره وهياجى يثيره
وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون الجأ اليه .
واندفعت الى موسى حلاقة وجدته أمامى .. وقطعت ثريان زراعى
وأغمى على .. وكان آخر ما سمعته صوت الحانمة وهى تصرخ ..
.. د

وحينا أفقت كان زوجى راكما الى جوارى يقبل يدى .. وقضى ..
ويبكي ويتوسل . ويقول أنه سيفعل المستحيل لأسعادى .. وأنه لن
يتركنى أبدا معها حدث .



وأنفذونى من الموت لأموت بطريقة أخرى .. ببطء .. فى البيت
الواسع .. والحجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغريب الذى يضمنى
كل ليلة على أنه زوجى .
والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلامعنى .
وكل يوم مثل الآخر ..
وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أشعر انه لا فائدة من أى شئ .. فأخذ
الحبيب النومة لأنام .
ولا أحد يشعر بى ..
أه يا رب ..
ماذا فعلت لأتعذب .
وما هو الأمل الذى أتحمل من أجله كل هذا العذاب .
أن الناس يضحون بأنفسهم من أجل شئ .. وأنا .. من أجل أى
شئ أضحي ١٢

افى أخسر كل شئ .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة
أعيشها
وانتهت المذكرات .



وعدت أمسك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من
الأوراق ..

هذه هى نانى وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف
عينها

وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحا وعادت كل كلمة فيها ترن
فى أذنى .. كل شخص يطاردنى .. ويتمتل لخيال .. وكأنى أعرفه من
زمن بعيد .. وكأنى عشت معه

كلهم تجمعوا حولى .. الأب الحنون الذى يتمذب فى صمت .. والأم
القاسية والأخت التى ماتت وبعت .. بعثت فى دى أنا أيضا ..
والزوج وثائقى .

لم يعودوا يتحركون وحدهم .. أصبحت التحرك معهم .. وأنساركهم
مصيرهم .

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الحيط الذى يربطنا نحن
الآنين أنا وهى .

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها
ضاعت نفسه .. وهو لا يجدها .

كل كلمة قرأتها ونقت هذا الجبل الخفى .. وعقدت بيننا ذلك القصران
المحرام الذى لا مفر منه .

انها لا تعرفى .. ولكنها مع هذا قد سلمتى مفاتيح عالمها الخاص
لأدخل فيه
ولعلها عرفتى بما فيه الكفاية حينما نظرت فى عينى فوجدت نفس
العالم الذى تسكنه .. وسعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن
نتكلم .
نأفى .

اشعر بها قرية منى . اشعر بها حولى .. فى داخل .. الى
جوارى . احبها . بنفس اليأس الذى تكره به زوجها
نأفى .
ولم استطع ان اصبر ..
ولم اعرف ماذا افعل بالضبط .. وانما وجدت نفس ادير قرص
التليفون على رقبها
- نأفى . اريد ان اراك فى الحال .
وكان صوتى يرتجف من العاطفة .
ولبنت صامتة برهة على الطرف الاخر من التليفون .
وسمعت صوت لهاثاتها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها .. ثم
اجابت فى استسلام .. وبلا وعى .. فى بأس .. كأنها امرأة تمشى فى
نومها ..
- طيب ..



كانت تجلس الى جوارى فى العربة .. وأنا اسير ببطء فى طريق خال
على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لى :
- هل قرأت الاوراق كلها ؟

- وعشت فيها كلمة .. كلمة .
 - وهل تجد ان لي حلا
 - انا لا اجد لك ولا لنفسى حلا
 - والتفتت الى في دهشة .
 - وما دخلك انت ؟
 - وما الذى جعلك تلقين بين يدى هذه الاوراق على خطورة
 ما فيها ؟
 لا ادرى .. ولكنى كنت اشعر دائما انك لست غريبا عني . كنت
 اشعر انك وحيد تماما مثل .
 وسكنت لحظة ثم اردفت .
 أليس هذا غريبا .. ان يشعر رجل بالوحدة ان الدنيا كلها
 دنيا الرجل .. انكم تستطيعون ان تفعلوا كل شيء .
 - وما جدوى ان تفعل اى شيء . اننا نريد ما تهواه انفسنا ..
 - وما الذى تهواه نفسك .
 - اريد ان اعيش .. اريد ان احب وأنزوج وأنجب ولدا
 - ألم تشعر الى الآن انك قد تزوجت وأنجبت ولدا .
 - اى انضل وظيفة زوج وأب . ولكنى لست متزوجا . ولا ابا
 - ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم احيانا يا رجال .. تستطيعون
 الطلاق والزواج مرة وأخرى .
 - ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. انا اضعف
 من ان اغير حياتي .. وأقوى من ان أقبلها
 - انك تتكلم مثل .. انت الرجل .. من يصدق هذا ؟ !
 وسكنت لحظة ثم قالت :

- ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة . لم يزوجك أحد
عنوة ..

لم اتزوج عنوة .. ولكني تزوجت خلسة دون أن ادرى ..

- وما ذنب زوجتك .. وما ذنب الولد الصغير ..

- ليس لأحد ما ذنب .. انى لا اشكو احدا

- ها انا الومك .. وأنا غارقة فى الذنب حتى اذنى .. ماذا اقول ماذا
افعل .. ما الحل .

- الحل هو ان نعلم .. انا شخصيا ابحت عن حلم ائسفيل به وأتوه

فيه .. ولكنى متيقظ متيقظ دائما . وهذه البقطة تعذبني ..

- ولكنك رجل .. أليس كذلك .. والرجل يستطيع ان يفرق همومه
فى عمله .

- ان عملي مثل زوجتى .. غريب عنى .. لا احبه .. انا املاً به
وقتى فقط .. ولكنى اريد ان املاً نفسى .. ان الفراغ الكبير هنا ..

داخلى .. اشعر انى عاطل تماما .. اشعر بالملل يقتلنى .

- أنك تعذب نفسك بدون داع .

- أريد ان اشعر بالحماس . اريد ان اتحمس .. اريد ان اتحمس

لشئ ولو كان هذا الشئ ارتكاب جريمة .. انى احيانا احسد المجرم لانه

ارتكب جريمة فى غل . انا اريد ان اشعر بالفعل نحو اى شئ .

- ألم تحب .. ألم تنسرح بالحب مرة فى حياتك .

- احيانا أقتع نفسى اننى احب هذه اوتلك .. ولكنى لا استطيع ان

استمر فى الكذب على نفسى طويلا .

- لا شك انها تكون مغامرات مسلية .

- انها تكون مسلية فى البداية .. لكنها تكون قاتلة فى آخرها حينما

اشعر انى قد فقدت القدرة على السعادة الى الأبد .

- انك تبالغ .. لاشك انك تبالغ كثيرا ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا .. انى احبانا اجد السعادة فى اشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عين ولدى .

كانت تحاول ان تسرى عنى .. وكان يبدو على وجهها انها تسمر بالراحة .. وكنت اشعر بالراحة لأنى وجدت انسانا اياس معه .. وأمل معه .. وأسخط على الحياة معه .
أكان حيا .

أكانت انانية منا نحن الاثنين .. كل واحد يحيد نفسه فى الآخر .. يحيد مصداق حياته مانلا أمام عينيه .. لا أدرى .
كل ما اعرفه انى كنت اريد ان أتكلم .. وأتكلم ..
لم أكن لريد ان أكف عن الكلام .
وكنت اشعر ان الوقت ضيق .. وأن ما أريد ان اقوله كثير .. كثير جدا .

ولم افق من الحمى التى كنت فيها الا حينا نهتفى الى ان الوقت متأخر وأتأنا يجب أن نعود الى البيت .
ولكنى ما كدت اعود وأستقر وحدى فى غرفى حتى شعرت بحاجة شديدة الى ان اكلمها . وما لبثت ان رفعت الساعة فى تردد ..
كانت وحدها

وقالت لى انها كانت على وشك ان تطلبنى .
شعرت بسعادة لا توصف .. وقلت لها فى اسف .
- انا اشعر بجعل شديد . لأنى قضيت كل الوقت معك . وأنا اتحدث عن نفسى كانت انانية منى لم اكتشفها الا حينا عدت الى البيت .. اغتفرى لى سوء أخلاق .
- انك دائما تحاول ان تحمل نفسك ذنبا .. لماذا تضطهد نفسك .

- انا لا اضطهد نفسي . ولكنى لا اريد ان أكون هـا بضاف الى هـومك .. لا احب ان اكون طفلا كثير الصراخ يضاف الى اطفالك فلديك ما يكفيك .

- انت لست طفلا .. انت عجوز جدا .. يحيل الى انك ولدت عجوزا كهلا اننى انك فى انك عرفت الطفولة يوما ما ان الطريقة التى تمضى بها والطريقة التى تنظر بها هى طريقة رجل كهل جرب كل شئ .. وانتهى من كل شئ . ويش من كل شئ .

- هذا صحيح . انا اشعر احيانا أنى عجوز جدا .

- اترك نفسك على سجيتهـا لا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير .
دعنى أكون طبيبتك النفسية .

- حاضر يا دكتورة . وماذا عندك من تعليقات اخرى .

- حذار من المفامرات المسلية .. فان قلبك المجوز لم يعد يحتملها
- حاضر .

- وابحث لنفسك عن عمل تحبه .. عمل مضى مرهق لنشغل نفسك به طول النهار وتعود متعبا لتنام .
- لقد وجدت هذا العمل من الآن .
- ماهو .

- انت .. انت ستكونين عمل المضى الذى احبه .. وأنشغل نفسي به طول الحياة .

وسكنت لحظة .. ولم تحب . وسمعت صوت لمنايتها . ثم قالت
باضطراب :

- لقد اخترت عملا يائسا خاسرا .. لقد اخترت مما تتعاطاه ولم تختر دواء .. انت تريد الموت لا الحياة .

- لقد فقدت القدرة على ان اعيش كما اشتهى .. دعني أمت كما
اشتهى .

- انا احمل من الذنوب ما يكفي . لا اريد ان احمل ذنوك انت
ايضا .. لقد حطمت حياقي ولا اريد ان احطم حياتك ممى . انت
اغلى من ان اختار لك هذا المصير انا اريد لك السعادة
- انت سعادتي .. انا احبك .. احبك ياناقى .
وسكنت . هذه المرة سكنت طويلا .. وسمعتها تبكى بحرقة .

- ٧ -

كنت أقف أمام الحوض .. رأسى تحت الحنفية .. والماء يزلق على
شعري .. وعيناي ما زائتا متقلتين بالنوم .
ومن خلقى كانت امينة تحمل القسوة .. وكنت اسمعها تتكلم ..
وصوتها مبسوح من البكاء طيلة الليلة الماضية . ولكنه ثابت .. جاد .
فيه نبرة شديدة لم أتعوقها :
كانت تكلمنى عن اطياف فى الصعيد .. وعن خطاب جاء من عند
الحولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان يذهب
بنفسه .. ويباشر العمل .. ويفتش على ارضه وزراعته .. وأنى اهلكت
كل شيء .. وأن الفلاحون يسرقونى .. وأنى سوف افقد املاكى
وتروى اذا لم افتح عينى جيدا . وكانت تتكلم بشدة .
- لا بد ان تسافر للصعيد . وتباشر ارضك بنفسك . ان أباك لم
يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..
وأحست بالحجل من نبراتها .
وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسؤوليات .
وأخفيت وجهى فى القسوة ورحت أحك رأسى عدة مرات .. وأنا
ما زلت امضغ ذلك الضيق الذى استولى على .
وذعبت الى مكتبى . ورحت أفض الخطابات ..

كان لا بد من السفر الى الصعيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا
احد هناك سوى الخول .. وهو يفعل كل شيء على هواه .. يزرع
ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف
وإيرادات .. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له ..
كان من الواجب عمل شيء .

وضايقتني كلمة الواجب .
وحينا بدأت أعد الحقاتب للسفر احسست ان ارضي هي التي
تلكني .. ولست انا الذي املكها ..
هي التي تجثم على أكتافي .. وتركني .. وتسوقني الى حيث
لا اريد .. لان الواجب كذا وكذا
أف من الواجب .

الصعيد ؟

مالى انا ومال الصعيد !!
انا اريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذي اخذ
ينبت حولى ..

في الشارع الذي اخضرت اشجاره فجأة وأورقت وأزهرت .
أمام الشباك الذي تتادى منه الشمس .
والتليفين الذي يحس في أذني بكلمة الحب ..
ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالحنج يلاني فأنصاعر في
نظري نفسى الى مجرد طفل يبذل الثروة التي جمعها ابوه .
وأكره نفسي وأكره ثروتي .. وأتقى الخلاص من الارض التي
تقيدني .

ان ابى ما زال يحكى ..
ان الفدادين الملقاة على أطراف سوهاج .. هي روحه .. هي

رغبته .. هي كلمة الواجب التي كان يطاردني بها وأنا صغير .



وصفر القطار طويلا . وألقيت بنفسى في عربة النوم ..
وأحسّت بذهنى يصفو وروحي تهدأ .. وذابت الدوشة التي كانت
تأخذ بتلابيبي كما تنوب الرغوة التي تعكر وجه الفنجان .. وبدأ ذلك
النوم الغامض الذى يجرى يطفو شيئا فشيئا من أعماق .
ها أنذا في النهاية ملق في عربة تجرى من بلد الى بلد . من مكان
غريب الى مكان غريب . لا شيء يشعرنى بالألفة سوى إحساس فى
داخلى اطويه عليا .. على خيالها .. على اسمها
اسمها يشعرنى بالألفة . بأنى مع نفسى ..
وتذكرت كلماتها وهي تقول لى :

- انت تعذب نفسك بدون داع .. انت تبالغ .. تبالغ كثيرا ان
الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا انى احيانا اجد السعادة
في اشياء صغيرة جدا .. في نظرة من عينى ولدى . أنك عجوز جدا .
يعيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التي تخشى بها والطريقة
التي تنظر بها هي طريقة رجل كهل جرب كل شيء وانتهى من كل
شيء . ويشس من كل شيء .. لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير
وصوتها المنون وهي تمس :

- انت اغلى من ان اختار لك هذا الصبر . انا اريد لك
السعادة لقد حطمت حياقي ولا اريد ان احطم حياتك معى .. انا
احمل من الذنوب ما يكفينى .. ولا اريد ان احمل ذنبك انت ايضا
بل احمل ذنبي انا ايضا .. وحطمت حياقي .
انا اريد ان اسمر بالولاء لأشئ شيء ولو لدمارى .

اريد ان اعثر على رغبتي الضالة .. ونفسي المفقودة .. فيك انت .
ناق .. ناق .

وظل اسمها في أدنى .. طول الطريق والمجالات تجلجل تحت الوسادة
حيث اضع رأسي . والعربة تهز والللمبة الكهربائية في السقف ترتعش
وعخبو نورها ثم يتألق .. ثم هدأت سرعة القطار .. وسمعت صوت
الفرامل .. ثم توقف القطار تماما .

وظننت انها محطة . وفتحت النافذة ولكني لم اجد محطة .. ورأيت
القطار يقف في العراء وسط الحقول .. والدنيا ليل . والظلمة حالكة
ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من النوافذ ونتكلم .. يقاطعنا
بين حين وآخر صوت ذئب يعوى في الحقول .
وقال الكسارى ان هناك عطلا في الخط وأن القطار سيتوقف نصف
ساعة .

ودخلت عربتي ولبثت في فراشي ونظرت في نور الللمبة الذى خبا تماما
ونقلت أجناني .. ونمت ..

لم أتيقظ الا والكسارى يثق الباب بشدة ويصيح : سوهاج .
وقت الى حقيقتي أسويا .. ولبست ثيابي وفتحت الباب ونزلت
مسرعا



سلامات .. والله سلامات .. كيف الحال في مصر .. طيبون ..
حلت البركة .

ده الصعيد نورث

الف حمد الله على السلامة .

روح يا واد لعلمك بشاى عيط عليه .. جبول له ان اليه وصل من
مصر .. والله سلامات .. والله مرحبا .. مشتاقين .

الاجبارية وصلتنا ليلة البارحة . جينا لتونا في الحلزونة (الأتوبيس)
ومن الصبح واحنا واجفين عاد .. كل ما يبجي جطر نجول اهو وصل
ونطل ما نلاجيش حد .
ان شاء الله تكون مبسوط .

كان المتحدث هو سركيس افندى .. الكاتب .. والخول الذي يدير
زراعتنا .. وكان يهب واقفا كل دقيقة وشد على بدى وهزها في عتف
وصتف :

ان شاء الله تكون مبسوط
وأنا في كل مرة أهب واقفا مثله .. وأشد على يده .. وأمرى لله .
وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالع البشرة .. أنسب الشعر ..
يشبه الجرادة .. عيناه ضيقتان حراوان غائرتان .. وهو لا يكف عن
وضع اصابعه فيها بين لحظة وأخرى ويفركها بشدة .
وركبنا عربة بالأجرة اخذتنا الى الارض .
واستقبلنا الحفرء باطلاق النار في الهواء .
وتجمع الفلاحون حولنا وكادت يدى تنخلع من كثرة المرحاب
والسلامات .

وكان الجو صحو والسماء صافية .. ولكنى كنت اشعر بانقباض ..
كانت الوجوه التى تبسم حولى هضيمة كالحة غبراء .. وكانت ابتسامتها
شاحبة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل التراب الذى في الجو ..
والجفاف والسخونة والهواء الراكد .

ودخلنا الاستراحة .. وكان الحفرء ما زالوا يطلقون النار في الهواء
والهام يطير في فزع من أبراجه ويخلق فوق رؤوسنا
وكان سركيس افندى ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه بين
حين وآخر هاتفا ..

انشاء الله تكون ميسوط ..

وجلست ادخن وفتحت الدفتر أمامي .. وجرت عيني على السطور .
١٢ نفر لمزيق القندان قح بواقع ١٢ قرش يومية للنفر .. المجموع
١٤٤ قرش ..

٦ أنفار لسقية القندان بواقع ١٢ قرش للنفر .. المجموع ٧٢ قرش .
٣ أكياس سماد للقندان بواقع الكيس ٥ جنيه .. المجموع ١٥ جنيه .
احتياجات الماكينة عن اربع سقيات للقندان ٤ جنيه .
أجرة مشال المصقول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا .
اموال مقررة

٢٥٠ قرش رسوم بلدية .

١١٠ قرش ضريبة جراد .

ومررت على الارقام بعيني عدة مرات .. دون ان افهم شيئا .
وخرج سرئيس افندى الى المحفل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت
وحدي مع عوضين الفلاح الذي يفرك عينيه .
مسألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى الدير البارحة
وأخذ ترايا من كنيسة العذرة وضعه في عينيه .. ثم ابتسم وأردف :
- دى الحمد لله كثير .. دى كانت وائمة البارحة زى عين الجمل ..
قدس ابونا هو الى طبيبها

ولم اجد كلاما ارد به على الرجل .. وعدت اقرأ الحسابات ..
١٠ أنفار لرسي الكياوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع ١٢٠
قرش للقندان .

نصف أردب قح نقاوى يبلغ ٣ جنيه ..
وتتنح عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم ..
- طيبون .. دى الصعيد نورث .

وسكت قليلا ثم اردف :

- انا لى مصلحة عندك يا سعادة البك ربنا يخليك .

- خير .. يا عوضين .

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..

- وافه بدى كام فدان آآجرهم منك السنة دى عشان الزرعة
السنوية .

- انت مش بتشتغل عندنا

- لا والله انا مأجر كام فدان جاركم فى حوض احمد بك .. وبالى

ازرع كام فدان عندكم السنة بالايجار .

- نأجر لك يا عوضين .. اما ييجى سركيس افندى . نشوف .

- ربنا يخليك يا سيدنا البك .

وخطر لى ان اسأله عن الزراعة .

والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح

ازيه .

- عال والحمد لله .. البركه فيك .

- رميت كپاوى قد ايه فى الفدان ؟

كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كپاوى .

- وكنت مشغل أنفار كتير ..

- ثمان أنفار فى الفدان .

وكنت انظر فى الدفتر واقرا الارقام العاليه التى كتبها سركيس

افندى ..

كان من الواضح انه سمى فى كل عملية على اساس انى لا افهم

شيئا فى الزراعة .

وأغلقت الدفتر .. وأنا افكر فى حل ..

وحضر سر كيس افندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت ..
ونجرت في الفيضان المجاورة اسأل الفلاحين .. وتأكد لي ان الخولى
يسرق منى . ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قمح وعود قطن .
وعدت وقد صممت على شئ .
ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهده الى عوضين ..
وقلت لعوضين .. انى سوف اعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه في
مقابل اشرافه على الاطيان وعمله كخولى عندى .
وهت سر كيس افندى ولم يتكلم . ودعا لي عوضين يطول العمر .
وانصرفت الى البندر وأنا اشعر براحة .. وأحس بأنى رددت الامور
الى نصايها .

ولمّت في اللوكاندة

ولكنى توقظت في الفجر على البعوض يأكل وجهى .. وعلى خبر
مفاجيء سرى في كل البلدة .. ان عوضين وجد مقتولا في حقله .
والفاعل مجهول .

وحضر سر كيس افندى في الصباح الى اللوكاندة .. وكان يحمل
طينجة على صدره .. ويصاحبه خفير الفيط .
وقال لي ان عوضين وجد مقتولا الاشقياء قتلوه على تار بايت
مسكين عوضين ..

وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة

- تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الارض ؟
- الى تشوفه يا سر كيس افندى .
- امرك يا سمادة البك .

وعاد ينظر الى نظرنه الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لها رمش .
وأجبتة وأنا اتجنب النظر الى عينه :

.. شوفها انت يا سركيس أفندى .. بس خد بالك من الحسابات
شويه .

- أنا محسوك يا سعادة البك .

ودار على عقبه وخرج ..

وظلت خطواته تلاحق وتدوى فى اذن مدة طويلة ..

وأدركنى اليأس .

ولم استطع ان ابريه نفسى من الجريمة .

لقد قتلت رجلا

بعد ساعة من وصولى الصيد قتلت رجلا

وتذكرت كلام الخواجة مترى ..

ان الارض هى لحم الفلاح .. والذى ينتزع من الفلاح ارضه ينتزع

لحمه ولا فائدة من ان تقول للفلاح انت تحرق القانون .. فاذا يعنى

القانون بالنسبة لرجل جاهل ..

ان رجليه تفوسان فى الطين . وحياته ينهش فيها المراهى وبذلك

التسليف والمالك والمستأجر وسركيس افندى .. كل واحد يطلق عليه

الرصاص .



ومر يومان على اقامتى بالصعيد .

النتيجة على الحائط تقول انى فى عام ١٩٥١ ولكن كل شئ

حولى يمضى ببطء جدا .. عشرات السنين وراء التاريخ

القسوة فى كل مكان .. فى الحر .. فى القراب .. فى الجفاف .. فى

الارض .. فى الفيضان .. فى الوجوه .. فى العيون .. فى الثمن الذى

يدفعه كل انسان فى مقابل اللقمة ..

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل ان يعى وجوده .. ثم يمضى يلهث ويجر قدميه .. ويمزق .. وبحرث .. ثم ينازعه جاره على قيراط برسيم ويقتله ..
والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فداناً ويعيش كالجمردة على حافة التربة . لا يعرف السينا ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يضع حفته من تراب العدة في عينيه .. ويعطيه رجل مبروك حجاباً يطلقه على صدره لينسق . بينما ينهب المبروك ليداوى عينيه في القاهرة عند طبيب الميون .

والتاجر الرقيق العبيط الذى ينظر الى البورصة كما ينظر الى السماء والقدر .. وكرامات الاولياء .. ويفلس بقاء .. ويموت بقاء كما يموت حمارة دين ان يعرف السبب .
وابن العمدة الوارث الذى يتفق امواله على راقصة في مصر ويموت من الحمر والمخدرات .

كل هؤلاء ينهون ويتعاونون .. كأنهم في غابة .
قسوة الحياة تبرز ارواحهم .. وأخلاقهم .. ونحوهم الى أجلاف غلاظ

وقد أحسست بهذه الضلطة تتسرب الى وتدفعنى الى رفع صوتى بالسباب والشتائم .

سنة واحدة أعيشها هنا .. وأصبح مثلهم .. اتكلم بلفظة .. وأقتل وأسرق وأتهب ..

لقد نسيت ذقنى فلم أعد أحلقها .. ونسيت هندامى .. ورباط عنق .

ونسيت الرجل الذى قتل من اجل .. عم عوضين .. الذى اطلقوا عليه الرصاص .. لأننى اخترته ليدبر زراعتى .

من الذى قتل عوضين ١١

سركيس افندى ١٢

الخفراء بتحريض من سركيس افندى ١٣

انا بقبائى ١٤

القدادين التى جئت اجرى من القاهرة لأجمع ايرادها ١٥

الحر .. التراب .. الجفاف .

لقد قيدوا الحسادت فى دفتر البوليس ضد مجهول .. ولكنى ارى

المتهمين جميعا وأنا اقدم .. ليس فيهم مجهول واحد ..

ليس لى أن اتحدث عن الغلظة .

ان القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المفسدة بالدم

وإنفاقها فى هدوء فى يارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل أشد

غلظة ..

وشعرت باليأس .. وبالنفور ..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتى أرباحها كل عام .

وشعرت انى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية ..

منذ ان وضعنا يدنا عليه .



وعند الظهر .. كان سركيس افندى يتجول فى غيط القطن فى

مظاهرة من الاولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون .. وكان

يحاول ان يطلعنى على حسن ادارته وحزمه .. يطارد الاولاد ويشخط

فيهم ويمرر خلفهم بعضا قصيرة من الخيزران .. ويضربهم .. وكانت

الشمس مشرقة فوق رؤوسنا تلسنا بشواظ من نار ..

وأغنى على احد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحلوه الى

الترعة ليرسوا على وجهه الماء .. وكانت يده التحيلة مضمومة الى

صدره تقبض على كسرة خبز جافة .
واكتفيت بما رأيت .. ولم انتظر نزول المساء .. واخذت قطار العودة
الى القاهرة .. وقد صممت على ان اطلق هذه الارض الى الابد ..



وكان اول شيء فعلته حينما وصلت القاهرة هو انى كلمت نانى
لأقول لها :

- سوف اترك الارض نهائيا .. سوف ابيع فدانين وافتح ورشة
لاصلاح السيارات اعمل فيها كمهندس .. عملي الوحيد الذى أتقنه .
انا لا اتمنى للأرض .. ليست لدى النجاعة لأقتل وأسرق
ان رؤية القسوة ترهقنى .. والاستمرار فى هذه الحياة التى اختارها
ابى لنفسه مستحيل .. مستحيل .. بالنسبة لى .
- وحياتك . والمستوى المادى الذى تعيش فيه .. كيف تترك
نروتك ولمن تتركها

- انى لا اتركها .. ان الفلاحين يضمنون يدهم عليها .. يستأجرونها
ولا يدفعون مليا .. ولا يستطيع ان أقاضيه . لقد تعبت .. تعبت من
المنظر الذى رأيته ..

- انت طيب اكثر من اللازم ..

- لست طيبا .. ولكنى لا استطيع .. لا استطيع ان اكون شيئا آخر
غير نفسى .. افضل ان اعيش حياة صغيرة املكها .. عن ان اعيش
حياة كبيرة تملكنى .. اريد ان اكون حرا .. اريد ان اقطع صلتى بكل
ما يفرض على واجبات لا احبها .. انا اكره الواجبات كلها .

- وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها .. انى احاول الخلاص
من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا استطيع . لا استطيع سوى

ان أجن فقط الجنون هو الشيء الوحيد الذى وصلت اليه .. وأنا
لا اريد لك ان تجن مثل . تستطيع ان تتخلص من أرضك .. ولكن
ستبقى هناك واجبات على كتفك لا خلاص منها
- نافي ارجوك ساعديني .. لا تسدى أمامى المنافذ .. لا تبقى في
وجهي حائطا غليظا هات يدك لنحفر سويا حفرة في الجدار نهرب
منها الى عالم نحبه .
- نهرب الى اين .. انت تعلم .
- لا توقظني اذن . دعيني احلم .. دعينا نحلم معا .. نافي ارجوك .
- يا حبيبي .
- نافي ..
- يا حبيبي ..
- اريد ان استريح . ان اضع رأسي على صدرك وأستريح
اجد نفسي بين ذراعيك .. ان اشعر بلحظة رضى .. انا الهت من التعب
هاربا من عالم لا اعرفه .. ولا احبه .. اليك انت .
- يا حبيبي ..
- تعالى يا نافي ..
وسكنت وسمعتها تيكى ..

- ٨ -

كنا وحدنا انا وهي .

وكنت انظر في عينيها في شغف .. ولا اسمع .. وأتطلع في ملامحها
الدقيقة .. وتعبيرات وجهها وخلجاتها وأستشف نفسها .. وأهيم
في وجودها وأندمج فيه في استمتاع وتلذذ عميق .

وكانت نظراتنا تتأسل وتتنبت ببعضها وتلوذ ببعضها وتسعى
كنى الى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه في حنان ..

ثم ارفع يدها الى شفتى أقبليها وتنام شفتاى في باطن يدها ..
وأشعر بها تقبلى في خدى .. وأشعر بشفتيها ببحنان عن شفتى وهما
ترتجفان ..

وتلتقى في قرحة .. ونغيب عن وعينا وعن الدنيا ونذوب في
بعض .. في فيض من النشوة . منتهى النشوة ..

احبك .. احبك جدا .. احبك طول عمرى .. احبك الى ان اموت
وبعد ان اموت .. وقبل ان اولد .. احبك .. احبك .. وما لزوم الكلام
والشعور يخفقنا .. يسكتنا

نأفى . انا لا اريد شيئا سواك انت .. سوى هذه اللحظة .. نتنظر
قليلا لأنعم بها انا لا اريد ان اتيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت انى
اجد فيها سبب وجودى .. لقد خلقت من اجل هذه اللحظة .. خلقت

لاكون لك . نافي . هذه لحظة تبدأ من عندها افراحي وألامى

وتلتقي شفتانا فى فرحة .. فى لفة ..

هل انا احلم .. قبلين لافيق .. بل قبلين لاحلم اكثر ..

- يا مجنون .. يا مجنون .

- انا لست مجنونا انا كأعقل ما اكون طول عمرى

- اذن فأنا المجنونة .. أنا انا .

- انت حبيبى

- يا حبيبى يا مجنون ..

- فيم تفكرين ؟

- افكر فى انى ولدت من جديد .. وأنى اعيش معك فى عالم ليس

فيه سوانا عالم لا ينظر الينا فى حسد وحقد .. عالم لا يوطننا من

سعادتنا .

- لا اهمية للعالم ما حتمنا معا

وأسكت بى فى خوف وهى تنحسنى لتأكد من وجودى بجوارها

وهست :

- لماذا تتأخر الآمال هكذا دائما .. لماذا تسقط الامطار بعد ان يموت

الزرع من الجفاف .

- ان الزرع لم يموت .. انه ما زال بانما مخضرا

ويكت على كفى وهى تقول بصوت متهدج :

- يا وهى الجميل .. يا وهى الجميل ..

- أنا لست وهىك . انا حقيقتك .

- اهدا .. انت وهى .. انا لا استطيع ان اسمك بك .. انت نفر

منى .. لا اجنك بجوارى ..

- انا بجوارك دائما .

- انت فى وهى . فى قلبى .. فى مهجى .. وسواد عيى .. ولكنك
لست فى بيتى .. لست فى واقى . عرق كفيك ليس فى الفراش الذى
انام فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادى .. ثيابك ليست مع ثيابى
فى سلة الغسيل .. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على مائدتى
قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على ارض غرفتى . ولدك
ليس منى .. وولدى ليس منك .. صوت سعالك الحاد لا اسمعه فى
حجرات الباردة . أنا اعيش فى غربة .. اعيش على وهم وجودك على
امل رؤيتك .. هل تعرف كيف احبك . هل تعرف كيف تحب المرأة
الرجل .. انها تعلم ان تكون سكنه وطعمه وشربه . تعلم بأن تجمع
شئاته على راحتها ..

ان الرجل يلثم المرأة فى شفتيها ثم يمضى فى طريقه . اما المرأة فهى
تعيش فى تلك القيلة .

أعرف لماذا أتيت معك الى هنا .. لأتزوّد من وجودك بمؤونة اعيش
بها . لأزود وهى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته ..
لأتذكرك اكثر .. وأتعرف عليك اكثر .. وأخاطبك فى لحظات وحدتى
وصمتى ولكنى لن اعود الى هنا . لن اعود الى لقائك ابدا .. لأن هذا
ليس حى .. ليس أنا . ليس أنا .

واخذت تهزق بشدة . وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج . هذا
ليس حى . ليس أنا .. لن اعود الى هنا ابدا
ثم انفجرت تيكى بمرارة ..

وصرخت وانا اضمها الى صدرى فى حنان :

- سوف نتزوج .. سوف نتزوج .. سوف أطلق زوجتى .
وأزوجهك بعد أن يطلقك زوجك .
ونظرت الىّ فى فزع هائفة بين دموعها .

- مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل . لا استطيع .
ابدا ..

- ولماذا لا تستطيعين .. الا تحبينى ..

وهست فى ضراعة ..

- نانى .. نانى .

- اخاف من الله .. ومن رجل .. ومنك .. ومن عيون اولادك ..
ومن عيون اولادى ..

- كل هذا لن يمتنعى .. ولن يمتنع .

- هناك شئء فرق كل هذا يمتنعى انا ..

- ما هو ..

- نفسى .. أخاف من نفسى .. إن الماضى يتغلغل فى حواسى .. أنا
لم أتزوج زوجى كرها ولا غصبا .. لقد .. ارتضيته .. صحيح انى لم
أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشرته . إن الرجال لا يعرفون العشرة كما
تعرفها النساء . لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع .. ولكن العشرة
تتغلغل فى الحواس . فى الدم .. فى اللحم .. إلى لن أكون خالصة
لك .. سوف تصود حياقى كلما دق علينا ولدى الصنفير باب غرفة
النوم .. وكلما تطلع إلينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل .. لن أستطيع أن
أسكته حينما يقول . بابا

انه أفعال التى تلهت خلقى ..

وسكنت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

- وانت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة
لتنظر فى عينها وأنت تلقى عليها العين .. حينما يمسك الطفل بذيلك وأنت
خارج .. كيف ستجد القوة لتنفذ يده الصغيرة عن ثوبك .. انه
أفعالك التى فعلتها .. كيف تنكرها ..

- لقد حدث كل هذا خلصة دون ادري .
 - ولكنه حدث ..
 - سوف اتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..
 - سوف اتحدى الدنيا كلها ولكنك لن تستطيع ان تتحدى نفسك .. لن تستطيع ان تتحدى أفعالك .. ان أفعالك هي ذراعاك .
 - سوف اقطع ذراعى لأصل اليك .
 - لا احب ان اراك مقطوع الذراعين .. لقد احببتك في كمالك وعذابك وضعفك .. ولم احبك وأنت تقبى وتقتل وتقطع رحمك وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف اصبح امرأة اخرى ولن يتعرف كل منا على صاحبه .. سوف نكون شريرين ينتقم كل منا من الاخر ..
 - سوف احبك الى الأبد مهما حدث ..
 - اما انا فأعلم جيدا ماذا سوف افعل اذا تزوجتك ..
 - ماذا ستفعلين ؟
 - سوف انتقم منك .
 - انت مجنونة .. انت مجنونة .
 - انا لا استطيع ان اخون نفسى .. انى احبك بنفسى وأتقرب اليك بروحى وأعشقك من خلال روحى .. ولو خنت روحى فسوف اخونك وأخون الدنيا
 - انت لا تحيننى .. انت تكهيننى .
 - وبنت لهذه الكلمة غرغ من نفقى ونظرت الى صامته وبكت .. وأمسكت بها من كفها . ورحت أقبلها في كل مكان من صدرها وأهتف ..
 - لن يكون في الدنيا حب اذا لم نزوج ..

- ليس في الدنيا حب .
 - لا نقول هذا يا ناني ..
 - ان الحب في قلوبنا وليس في الدنيا انه في وهنا فقط
 الدنيا لا تحمله . ولا تستطيع ان تحقه .
 - لا نقول هذا الكلام .. اني اخنتك حينما اسمعك ترددين هذا
 الكلام ..
 - ان الواقع هو الذي يخوننا جميعا ان الحب في قلوبنا عميق .
 عميق ولكن الحب في الواقع يخونك بالشهوة والقسوة والاثانية .
 والمصلحة والعادة والملل والغسجر وأنا لا اريد ان اخونك حبي لك
 بالواقع .. اريد ان احتفظ به في وهمي وأغذى به خيالي
 - سوف تكونين سكنى وبيتى وحياتي
 لقد فات الأوان .. لقد سقطت الامطار بعد ان جف الزرع
 لا تعذب نفسك وتعذبي معك .. ولا تثرثر كثيرا كالاطفال الصغار ..
 انظر الى .. احتضنى بذراعيك .. دعنى المسك هكذا .. دعنى اقل
 بالنظر اليك .. دعنى ازود بجوونه اعيش عليها العمر كله .
 وأخذت تنظر الى في هيام وكان في عينها فزع .
 كانت في عينها نظرات امرأة تودع شيئا لن تراه ..
 وأصابتى عدوى الفزع الذى يطل من عينها وأسكت بها
 أهرها .
 اننا سوف نلتق مرة اخرى .. سوف نلتق كل يوم .. كل لحظة .
 أليس كذلك .
 وأجابت في نبرة جامدة ثابتة وهي تنظر في وجهي .
 - اننا لن نلتق
 - مستحيل .. مستحيل .

- انا لا احب هذا اللقاء المروق .. انه ليس حبي ليس انا

ليس انا

- سوف نزوج .. ونحقق الحب الكبير الذى تعلمين به .

- ان حبي يتحقق فى قلبى وحده فى وهى ان كل الامكنة
تضيق به وكل الحلول تضيق به انه المستحيل الذى احتضنه فى
ضلوعى .. وقد ضاقت الدنيا به على رحابتها

وانهارت نيكى وكل جسمها يرتجف .

ونظرت الى من خلال دموعها وغمغمت ..

- لماذا أعذبك .. لماذا تركنى اعذبك هكذا لماذا لا تقتلنى .

- نانى .. كفى هذيانا ..

- لماذا لا تقتلنى ..

ونظرت الى .. نظرت الى فى شوق طفلة .. وهى تتعسقى بنظراتها .

- هل عندك حل ؟

- الحل هو ان اتزوجك .

وضحكت ضحكة هستيرية وغمغمت

- ايها العجوز . انك لا تصلح زوجا لى .. افى ارفض ان اتزوجك .

وقبلتنى فى جيبينى وهى تقول :

- اريد ان احفظ هذه المنسوط الرفيعة التى فى جيبينك خطأ خطأ

حتى اذكرها كلها وأنا وحدى .. وأستحضر صورتك فى خيالى .

وأراك أمامى هكذا وأنا جالسة وحدى فى البيت ارتجف من البرد .

- نانى .. لماذا جئت معى الى هنا .. لماذا تقولين هذا الكلام ..

ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء

- لماذا فعلنا كل ما فعلناه . لماذا تمسكين بيدي هكذا .. كأنك

تتصرينها ..

- اريد ان اتخلل يدك لأصل الى روحك .. اريد ان استولى على روحك . اريد ان آخذ روحك ..

وضحكت في حزن :

- انت تعذبنى •

- الدنيا هي التي تعذبنا الدنيا هي التي خدعتنا .. الدنيا ادخلتنا في غرفة مظلمة لنتخار ملايسنا فلم نستطع أن نتعرف على ثيابنا في الظلام .. وخرجنا كل واحد يلبس لبسا غير لبه .. ثم تمزقت ملايسنا من ضيقها وبليت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف وفي النهاية لم تبق لنا ثياب نستتر بها أنفسنا

- سوف نفصل لأنفسنا ثيابا جديدة

- سوف نفصلها من الخرق القديمة . ولن نستترنا الا لحظات ثم تتمزق ثانية ..

- ناني . لماذا تتكلمين بكل هذا البأس ؟

- لأنى لا اجد حلا .

- ولكنك تجدينى الى جوارك .. أليس كذلك ..

ونظرت الى في اوتياب وأخذت تتحسسى لتأكد من انى موجود فعلا .

- نعم .. هذا انت كلك حولى .. كلك حولى ..

وامتلأت عينها دموعا

ودقت ساعة المانط عشردقات .. فرغنا رأسينا في وقت واحد في فزع ..

- الساعة بلغت العاشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب ان اعود حالا

وكانت الدقة الاخيرة ما زالت تدوى في افنى .. وكان صوتها كثيبا .

ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المرأة .. وكانت تمسحيني
ظهرها وكان قلبي يبط ويبط في ضلوعي .. حتى يصل الى
قدمي .. وأسرعت اليها احتضنها .

- لا تنزل الان ..

- كيف ؟

- ابقى لحظة . اريد ان اكلمك قليلا ..

- ماذا تريد ؟

- اريد

وتعلمت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد .

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامي ..
انطلق إليها .. وأنسم عطرها .. وأرى شفتيها وهما تنفرجان .. وأرى
عينها .. وهما تملئان بالشوق ..

كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهى تجاوبني بأى كلام . وقلت لها في
أسى :

- ناني .. لا اريد ان احس اني سوف افقدك .. ان هذا الاحساس
يقتلني .. يقتلني ..

- انك لن تفقدني .. سأعيش لك دائما .

- هل هذا صحيح ؟

- لا يوجد شيء صحيح في حياتي غيرك انت ..

- ولكنك ذاهبة الان .. أليس كذلك ؟

- اينما ذهبت فسوف تكون معي .. في كل بيت ادخله .. وفي كل

كتاب افتحه .. وفي كل نغمة اعزفها

- لا اريد .. لا اريد هذا اللقاء .. انا اريدك انت لحما ودما ..

ونظرت الى في اشفاق .. ولم تتكلم ..

وخلف العينين المشفقين .. كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .
كانت تسألني بعينيها ماذا استطيع ان افعل يا حبيبي .. انا احبك
وأريدك .. وانفك .. ولكن ماذا افعل .. كانت تشبث بي فانقطع . في
يديها ولا تجدني ولا اجدها .. وكلانا بمسك بالآخر
كنت اقرأ كل هذا في عينيها .. وأنا أنظر فيها ويداي مطبقتان
على يديها ..

ولم اجد شيئا اقله ..

وصحبها في عريقي ..

ولبت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا نستطيع الخروج في
النور .. عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تعاقبنا على السعادة التي نسرقتها
بالسجن .. والحياة في الخفاء في فزع .
وكنتم اتسامل . لماذا تعاقب في جهنم .. والعذاب يتعقبنا على
الارض .

الجزء يلحق بنا لحظة بلحظة . قبل ان نلتقط انفسنا .

وكنتم انصر بالضيق .. وبالحرز .. وبأنى مظلوم .. وأحسد الفضلاء
على السكينة التي يعيشون فيها
كنت أتعذب ..

ولم اجد ما ابته سخطى سوى العربة الحديد التي اركبها .. فضغطت
بقدمي على البزير وانطلقت اطرير في سرعة خطيرة وكان الاحساس
بالخطر يريح اعصابي .. ويسكت الضجة التي في دماغي .
وكانت نافي تشبث بذراعي في خوف ..

ماذا دهاك .. لماذا تسرع هكذا .. هل تريد ان تنتحر .. هل تريد
ان تموت .

هل اريد ان اموت . ربما
- هل تحبين الحياة
- نعم احبها لأنك فيها
- هل تجزعين من الموت اذا متنا معا
- لماذا تقول هذا الكلام . انت تفرعنى
ونظرت الى بعينين واسعتين يغمرها الحنان .
وارتاحت نفسى وأنا انظر اليها .
وكنا قد اقتربنا من البيت .. فهدأت من السرعة . وتوقفت ..
وكانت هناك عربة اخرى قادمة من الامام ..
وأضاءتنا بكشافاتها ..
وهست نائى فى ذعر .. انه عزيز زوجى
ونزل عزيز من العربة .. ووقف ينتظرنا . وكانت تبدو عليه
الدهشة

لم أبحر البيت طوال ثلاثة أيام .
عصفت بي حوى الزمتمنى الفراش .. وليبت أهذى .. وأتلوى من آلام
حادّة فى عظامى .. وأتقلب فى طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق .
وسكنت روى مثل سراع القمت به الريح على شاطئ مهجور .
وفتحت عينيّ لأجد زوجتى واقفة عند رأسى .. وفى يدها كوب من
الليمون .. وعيناها واسعتان .. مثل بحر من العسل ملئ بالحنان ..
وأراحت رأسى على كفها لتسقى .
ونظرت الى عينيها .. وخارت قواى ..
ورنت فى أذنى كلمات نانى .
كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة لتنظر فى
عينيها وأنت تلقى عليها اليمين .. كيف تجد القوة لتززع ولدك الصغير من
نوبك وهو يتشبّه بك عند الباب .. أنه فعلتك التى فعلتها ..
إنك تستطيع أن تغنون الدنيا كلها .. ولكلك لا تستطيع أن تحسون
نفسك . لا تستطيع أن تنكر فعلتك .
انك حيناً تحون نفسك تحونى فأنت تحبنى بهذه النفس .. وتمنقنى
من خلاها مستحيل .
ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..

رأيت المستحيل في البحر الساذج المتون في عينها .. وسمعت صوته
في بكاء ولدى .. وهو يناديني ..
وتذكرت كلمات نافي .. وأنا أقول لها .. سأ تزوجك .. سأحقق الحب
الكبير الذى تخلمين به .. وهى تجاوبنى في ضعف .
- ان حبي يتحقق في قلبي وحده .. في وهى .. ان كل الأمكنة
تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى احتضنه في
ضلوعى ..

كنت أشعر بهذا المستحيل في تلك اللحظة .
كنت أشعر بارادى تنكسر على عيني زوجتى وهى تنظر الى ورغباتى
تذوب أمام عريضة ولدى الصغير وهو يضع يده في كفى ..
ماذا أفعل أمام البراءة ..
كيف أنظر الى البراءة في عينها وأصغفها ..
لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل . وأعيش به
وحدى في الظلمة .. أسجنه معى .. ويسجننى معه ..

بشت تماما

وكانت زوجتى تحدثنى في نبرة أسمى

- هل سمعت الصراخ أسمى ؟

- أى صراخ ..

- لقد كنت محموما

- ماذا حدث ؟

- لقد تنساجر تعزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها وسقطت

الكوب من يدى .. وغامت عينائى .. وأظلمت الدنيا أمامى فترة .

وأفقت لأجد زوجتى تدلك خدى .. وتربت على شبرى .. ولم تفتن

الى سبب المي .. لأنها عادت تقول في حزن :

- مسكينة نافي .. ان زوجها رجل متوحش .
ومسكين أنا أيضا يا ليتها تعلم كم أنا مسكين .



وفي الظهر تلقيت هذا الخطاب من نافي :
أكتب لك يدي اليمنى ويدي اليسرى في الجبس .. شكرا لله انه
أبقى لي يدا سليمة أكتب لك بها
لقد ضربني زوجي وكسر ذراعي .. مسكين انا لا ألومه .. ولكنني
ألوم نفسي فقد كنت قاسية في معاملته .
أرهقني بشكوكه وأسلته وسبابه وفظاظته وغلظته حتى جن جنوني
وتناولت عليه . ففقد صوابه وهجم على كالوحش .. وأخذ يضربني
حتى كسر ذراعي ..
ليته أقى على البقية الباقية مني لاسترح .. ليته اسكت قلبي
الذي يتف باسلك .
إن وجودي يرهقني ..

ان عواطفي تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها عاجزة عن
اطلاقها أسير في الحياة كدمية مشطورة نصفين . نائمة مترددة .
نصف نائرة نصف مستسلمة .. أقوم بأفعال لا أقتنع بها . وأقتنع
ببإدائي .. لا أعمل بها ضائعة .. ضائعة تماما .. أمل الوحيد
مستحيل

لقد ظلمت أفكر بمد أن افترقا كيف أوتيت المرأة لأفعل كل
هذا كيف خرجت من بيتي لأقابلك .
كيف جرؤت ..
ولكني الآن أعرف كيف حدث هذا ..

ان العذاب الذى أعيش فيه افقدنى القدرة على التمييز . كنت
كالحكوم عليه بالاعدام الذى أباحث له المحكمة ان يطلب طلبا قبل ان
يموت .

لقد اهدرت الظروف السيئة حياى .. واستباححت دعى .. وطاردتنى
حتى سلم المقصلة ..

ماذا هناك أكثر من ان تقطع رأسى .. لا شئ ..

وطلبت أن أراك ..

طلبتك قبل أن أموت .

طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز .

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شئ من حتى .. أى شئ .. حتى
أنت ..

يا الهى ..

انى استطيع ان اخاطبك انت وحدك .. ولكنى لا استطيع ان أخاطب
الناس

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى
سواك ..

أنا ساقطة فى نظر الناس ..

ولكنى أعيش فى جهنم

جهنم .. هى حياى ..

لقد دفعت ثمن خطيئتى فى الدنيا .. ونفذت العدالة أمرها فى
مصري .

انتهى أمرى ..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..

ان الخطيئة شقائى وليست لذى .

انى أحسد الفضلاء ..
ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة
انها الجنة .. انها مكافأة جميلة .
انا اعجب للفضلاء ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم بالجنة .
أى جنة . وهم فى الجنة فعلا .



يا حبيبى ..
أجل نئى فى هذه اللحظة انى وحدى لا شئ معى سوى خيالك .
أتملك أمامى بقامتك الطويلة .. ووجهك الأسمر الرقيق .. وعينيك
الحاترتين وهما تندفقان حنانا وطيبة .. وأسمع صوتك الأجش .. ونبراتك
الرحيمة .. وأعيش فى انسجام مع روحك .. اغل برؤية نفسى فى
مراتك فى كلامك .. وخطواتك .. ولفنائك .. وضحكائك .
الساعة التى قضيتها معك .. تزودنى بزيادة من الموسيقى لا ينفذ ..
يلا وحدتى بالأنغام .. ويكتشف لى جمالا خفيا وراء كل شئ أنتمسه
بجواى فى لذة .
فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب .
لم أعرف ..

ربما لأنك حريق .
ربما لأنك ارادنى التى قرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف
وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل اليك ..
ربما لأنك أنا وقد ظفرت بك .. وبنفسى فى ذات الوقت ..
ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حسرى .. لما أحبتك .. ولما
عرفتك ..

أنانية

ولكن لا

انها ليست أنانية الى النهاية .

هناك سر آخر .

سر في الدنيا كسفت لى عنه فأصبحت أحبا وأتسر بجهاها
وأهتز لنساتها .. وأتلفذ بالحياة فيها

سحر خفى في الوجود دلى عليه حيك ..

ما أكثر ما يستطيع الحب ان يفعله .

انى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب اخى .. كيف
كان يضئ بشغافية حلوة .. وكانت أساريره تضحك في طلاقة ..
وحركاته تنساب في خفة ومرح ..

وأتأمله الآن .. وهو ثقيل معتم جامد غليظ يتحرك في لزوجة
وبطء .. الكراهية تشيع في جسمه كما تشيع الرطوبة في المفاصل ..
كيف أتسر أحيانا وهو ينظر الى .. انه سوف يقتلنى .. كيف أحاول
المستحيل لأفهمه دون ان أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع
الامتزاج بها .. مادة ثقيلة ترسب في نفسى ولا تدوب ..

كيف نتعاصر منذ سنوات . ونحن منفصلان .. نتلامس بالجسم
فقط يجتمعنا الاشفاق أحيانا فأنصدق عليه .. وأنا أتأفف .. كانى
أخرج دواء مرا . ثم أعود فأثور عليه وأتلفذ بجرمانه وتعذيبه .
والآن .. وأنا أحبك .. كيف أتسر أحيانا .. انى احب كل ما فى
الدنيا .. وأنتى أحبه .. حتى هو أيضا .. وأزداد قريبا منه ومن
أولادى .. ويبقى .. وأتسر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا ..
حيك رد لى قدرق على أن أحب . وأعطى .. ومنحنى القسوة
لأغفر .. وأتحمل ..

ان الكراهية شئ فظيع يوقف الدم في القلب ..
وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح .. أحاربها وأنا
أكره ان احاربها وأكره نفسى . كنت تعيسة .. تعيسة جدا أنتص من
أن أدافع عن حياتى .
ولكنى الآن أحارب الدنيا . بك .



فكرت فيك وأنا أنام .
واكتفيت وأنا أغمض عيني بأن افكر فيك واعيش في معنى
وجودك ..
ولم يخطر ببالى ان أذهب اليك بحسمى .. وأحاول ان أقابلك ..
كان شعورى نحوك .. وشعورى نحو نفسى .. أكبر من ذلك الأجر
الزهد الذى تعدنى به هذه المقابلة ..
كان ملتقانا فى الخيال أرحب بكثير من الغرفة التى التقينا بها فى
الواقع .. وكانت مسرق بك أعظم ..
لا ليست الفضيلة .. كما تبادر الى ذهنك . هى التى منعنى من
أن اسعى اليك .. فأنا لست امرأة فاضلة .. وإنما حسي هو الذى
منعنى . إحتاسى بأن أى لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفى عطشى ..
ولن تساوى عطشى .. وكل ما ستفعله .. انها سوف توسع هوة
المستحيل التى نقف نحن الاثنان على حافتها .. وتزيد حسرتنا
وبأسنا .. وعذابنا
وطمعى فى أن أفوز بك كاملا هو الذى قعدنى فى مكانى لا أبرحه
ولا أحاول أن أسمى اليك لألقاك .. ولا أرغب فى هذا القسط الزهد
من اللذة ..

لم أكن فاضلة .

كنت أريد اللذة كلها ولم يكن يشبعني قسط منها .. لم تكن
تشبعني رشفة من حافة كأسك . أو لمسة من وجودك .. ولهذا أثرت أن
أعيش في معنى وجودك .. مع صورتك وفكرتك ..
شكرا لك .

إن حبي لك يحميني منك ويحميني لك ..
ويحميك انت أيضا لي .. كأجل ما تكون مع زوجتك وولدتك ..
إن الحب شعور طيب مهما كانت صورته .. ولا يمكن للواقع أن
يساومه . لأن الواقع أضيق منه وأرخص . ولو أني أصبحت زوجتك
فلن يجد حبي لك كفايته .. وسوف يفتق في التعامل اليومي المبتذل مع
الطباخ والبواب والبقال .

إن الحياة قاسية .. قاسية .
الحياة تدوسنا وتدوس مشاعرنا .. وتدوس أحلامنا . كل شيء
يتحقق فيها تسقط قيمته .. حتى المادة نفسها .. حتى النقود .. تظل
حلمًا جيلًا حتى نكسبها وننفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئًا عاديًا نرهبه .
وتتخلص منه بالقمار ..

أنا أكره الواقع ..
وأحبك انت أكثر من الواقع .
وأكثر من الحياة
وأحب حبيك أكثر منك .. وأكثر من نفسي وأصعد به الى سماءات
أجمل من نفسي ومن الدنيا سماءات مضيئة في داخل . تمنحني
السعادة .. والسلوى .. والعزاء .

يا حبيبي يا أجمل ما في دنياي .. أنا أحبك الحب كله .. فلا تمنحني
الحب الصغير الذي لا يذكرني الا حينما يجوع الجسد ويجوع العيان

ونجوع اليـدان .

أحبني الحب الكبير .. الذي ليس له حل .. وليس فيه شبع ..
وليسـت له وسائل ولا أوقات ..

الحب المستمر مثل الوجود .. الحاضر في القلب مثل الخفقان ..
المتصل كالأنفاس .. في النوم واليقظة .

لا تحاول ان تسمى الى لقاء مسروق لتشبع جسـدك وعينيك منى .
ان هذا أجر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذي أحبه لك .
سوف أحزن كثيرا اذا حدث هذا .. سوف أتعذب .

سوف تعذبني وحدتي من جديد .. وحدتي في حب لم يجد صـداه
ياحبيبي يا أمل .. لا تخذلني ..

دمت لى . ولولـدك .. ولزوجتك . وسعدت في كل اوقانتك ..

« نائى »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا وأربعا .. ولا أدري كم مرة
بعد هذا كنت أقرأه .. ثم أضعه الى جوارى ثم أعود فأقرأه .

وكأنى أجرى وألـهت . في طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرن
حولى .. ولا أجدها . مثل الروح تـلأفى ولا أراها ..

مثل روحى أنا .

قريبة .. ومستحيلة .

منذ شهر وأنا أعمل في ورشة السيارات التي فتحتها . كل يوم من الصباح الى المساء .

أشعر بلذة من الانتهاء في عمل .. وأشعر بسعادة لأنه عمل .. أوظف فيه خبرتي وذكائي ومجهودي دون وساطة أحد .. أنا والآلة نقف وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكيها .. وقد تطورت العلاقة بيننا الى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمي له قلب وأحشاء ولحم ودم . تميت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو اني استطعت ان أفك نفسي وأعيد تركيبها

تميت لو أنها طاوعتني ..

ان الحديد يطاوعتني ولكن قلبي لا يطاوعتني ..

أنا أبث عقلي في الآلة فتتحرك .. وتنظم .. ولكن عاجز عن أن أبث عقلي في عاطفتي .

أشواق تحرقني .. صوتها يرن في أذني على الدوام .. روحها تحمقني وتسلبني الإرادة ..

أتمس الهدوء لنفسي فلا أجده .. كيف أنساها كيف أروض نفسي على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطق ضرام الرغبة .. وهب الحنين .. وعقلي .. حتى عقلي يشتهيها ..

إنها تجدد الحصانة منى في حبها لى .. فالى أنا لا أجد حصانة منها في

حبى

حاولت ان أجعل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات
الحواس ولكنى لم أستطع .. غلبتنى بشرى .
أحتقرت نفسى ..

كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه في
خوف وتردد . أمد يدي ثم أردتها .

وأحيانا كنت أرفع الساعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم
لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع الساعة من جديد .. وكنت أجد في
ادارة الأرقام لذة ليمرد انها تنتمى اليها .. وكان اسمها على لسان زوجتى
يمركنى .. كأنه كائن حى ..

وكانت الموسيقى تعذبنى تذكرنى بها .. بتقاطيعها .. بعودها
التحليل .. ومشيئها المنسجمة .

فكرت كثيرا في خطاياها الأخير .. وفي كلماتها ..

كيف صعدت الى هذا الصفاء المعنوى .

مالذى شدها الى فوق .

العذاب !!

المستحيل !!

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشدنى .. ودنيا

الحواس تجذبنى .. وتبدو لى أكثر اقناعا

كانت بيننا مسافة انسانية .. هي العذاب الذى تعذبه ..



سافرت الى الاسكندرية لأغرق هومى في صخب المصيف .. ولكن

الأمر لم يتغير كثيرا .

كان الضخبط يطفو على سطح وجودى .. والحوادث تجري حولي
كأنها على شاطئ .. معزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها الا بحاملة ..
دون أن أمتزج بشئ فيها بالقلب .
قابلت الأستاذة فاطمة المحامية .. وكانت غنى وحدها بإعياء .. نخلة
شاحبة تحت عينيها غضون سود ..

لم اعرفها في البداية حتى سلمت على .. فأخذت أدور يميني في
جسمها باحثا عن الاستدارة الجميلة التي كنت أراها مرسومة تحت
الفتان .. والصدر الزجاج الشهي الذي كان يكظ من فتحة
نورها

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت غارها ..
طلبت مني أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمفص عادوها
ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطبيب .
تذكرت الليالي التي قضيتها سويا .. وأنا استمع الى صوتها
المبلل .. تذكرتها كأنما أتذكر سرايا
كيف حالك يا حلمي .. يغيل الى أن سنوات مضت دون أن
أراك .

- نعم .. سنوات .
- تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..
- هموم الحياة .
ولم أنسا أن أخبرها بشئ من هموم الحياة .. ولكنها قالت في فضول :
- لم أكن أعتقد أن الهموم نستطيع أن تنالك .. كنت تبدو لي دائما
رجلا قويا ..
- ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. اليس كذلك ؟

- ماذا تعنى ..
أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..
- أنا
واكتست عيناها بالحزن وأردفت فى نبرة كسيرة ..
- أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما أقتل نفسى . طول عمرى
وأنا أقتل نفسى .. لم أجد أحدا ينقذنى ..
- لقد قتلت كل من حاولوا انقاذك يا فاطمة . انت تعلمين جيدا
كيف كانت حياتك ..
- نعم أعلم ..
وسكتت ثم أردفت فى يأس :
- لا فائدة . لم يعد هناك فائدة ..
- لا داعى لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من
جديد .
- أنظن هذا ..
- أكيد ..
وفى الحق لم أكن متأكد .
- أشكرك على هذا التشجيع .
وأردفت بعد لحظة :
- ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى .. امرأة سيئة .
أليس كذلك . لا تحاملنى أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا كانوا
يقولون عنى امرأة سيئة .
ولم أقل لها أنى لم أتذكرها الا اليوم .. وإنما قلت مجاملا :
- كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معا .
- شكرا .. يا لك من ولد رقيق جميل .. كم كنت أحبك ..

وقلت لها باهتمام :

- قولى الحقيقة يا فاطمة . هل كنت تخبئى .. لقد فات أوان الكذب .

وأجابت فى ملل :

- يا ولدى الصغير .. أنا لم أحب أحد . ولم يحبنى أحد .. لا يوجد رجل فى الدنيا أهل للحب .. أنت تعلم بأمنىء لا وجود لها ..
- ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام .
- دعك من التفلسف .. وقل لى هل أحببت أنت ..
- نعم أحببت .

- ومن هى الساذجة التى خدعتها يا ترى ؟

- أنا لم أخدع أحدا .

- اذن فقد خدعت نفسك

- وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى

لتخلق قصة وهمية تجعل بها حياتك . أليس هذا هو الحب .

- إن الحب هو الذى خلقنى ولست انا الذى خلقته .. أنا لا أستطيع أن أخلق حبا

- هذه اشعار .. ان الواقع غير هذا .

- وما هو الواقع عندك .

- الحب فى الواقع هو العذر الذى نلجأ اليه لنقضى وقتنا طيبا فى

الفراش انه الكلمات الشبهة التى نقولها لبعض لنقبل على الأكل

بنفس مفتوحة ونصنع لأنفسنا جوا من المحاسن ننسى به الوقت ..

- لسنا فى حاجة لأعذار لنجتمع فى الفراش .. ان الضرورة تمنعنا

بالتباعد عنا وهى تتكفل بخلق المحاسن اللازم وأكثر ..

- لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

- ان لقاء الفرائس قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب . وقد لا يتم بالمرّة .. ويقوم الحب بدوره .

- هذا كلام فارغ .

وشعرت ان كلامي يضايقها .. فسكت .. ودخل الطيب .. وفحصها .. وكما حدث في المرة السابقة .. وقف يصمص شفته في استغراب . ويقول انه لم يجد شيئاً ذا بال .. ربما كان احتقاناً أو برداً في المعدة .. أو أى شئ نافه لا يدعو للقلق .. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقة مسكنة .

وفتح حقيته وأعطائها الحقة .. واستعادت روحها . ومرحها . وقالت مداعبة :

- والآن احك لى عن حبك يا صغيرى . فقد مضى على وقت لم أسمع نكتة ظريفة .

- ان حبى ليس نكتة ..

- حسناً أخرج منديلك لتكفكف به الدموع .. وأحكى لى عن تراجيديا غرامك .

- ألا تستطيعين ان تتكلمى عن شئ دون أن تسخرى منه .. ألا تصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل الصدقة

- أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب في كذب .. انها نكتة . انها

سخف لا يحتمل

- ومع هذا فيبدو انك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة ..

- وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه

- ألم يخاطر بنهتك ان السخف قد لا يكون في الدنيا وإنما قد

يكون في طريقة حياتك لهذه الدنيا ..

- هذا وعظ مسيحي جميل .. يبدو ان صاحبك راهبة في
الفرنسكان .

- انت اسوأ دعاية لأرائك من الواضح انك لم تستطعي ان تبلى
بهذه الآراء اى راحة او سعادة وهذا انت بعد ثلاثين سنة .. وحيدة
لا رجل . ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت .. ولا حتى صديق .. وحيدة
مريضة في فندق مهجور وفي بلد لا تعرفين فيها احدا .. هل هناك فشل
اكثر من هذا لك ولأرائك . هل يمكن ان يعاقب انسان على آثامه
بأكثر من هذا ..

ويبدو ان كلامي كان قاسيا لانها سكنت .. وشعب وجهها وظهر
عليها الحقد والمرارة واليأس ..

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة .. تبكى .. وتشد
شعرها

- حلمي . حرام عليك . لا تقتلى .. لا تقتلى

انا مسكينة مسكينة انا في حاجة إلى العطف والحنان .

- لن تجدى العطف والحنان إلا اذا اعطيت العطف والحنان .

- انا غير قادرة على ان اعطى احدا شيئا انا لا املك عطفًا
ولا أملك حنانا انا مسكينة . مسكينة ..

وظلت تردد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى
استراحت وهدأت فسحت دموعها ثم قالت في صوت ضعيف هاس :
- حلمي انت لا تعرف عنى شيئا ..

- انا اعرف ما يكفيني .

- ايدا . .

وسكنت لحظة ثم عادت تبكى فى سكون .. وقالت فى وجعل وتردد ..
 - سوف اقول لك حقيقة لا تعلمها هل تعرف سر هذه النوبات من المصص التى تتناهى ..
 وسكنت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب ..
 - انى اتحايل بها لأحصل على حقن المورفين .. انا ادمن المورفين من زمن طويل .
 وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماما ..
 وأحسست بالإشفاق الشديد نحوها
 - يجب ان تدخل مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الإدمان المدمر .
 - لا فائدة - سوف اعالج الادمان .. ولكن كيف اعالج حياى ..
 كيف احتملها بدون ان اتجرع السم كل يوم . كيف اعيش بلا حب بلا هدف بلا ايمان .. بلا معنى . بلا إله كيف احتمل حياة كلها عبت فى عبث .
 لماذا لا تتكلم ..
 - ماذا استطيع ان اقول لامرأة لا تشعر أن فى عالمها إلهيا كيف ادخل لها النور .. وقد اغلقت كل النوافذ ..
 - انا لا اريد الهيا .. انا اريد رجلا يحبنى وأحبه رجلا يحبنى بكل قلبه ..
 وعادت تبكى



طسول الطريق أثناء عودى من الاسكندرية كنت أفكر فى نانى ..
 عصفور جميل سجين .. بين جدران اربعة من المستحيل . لا يملك حريته ولا خبزه ولا جسمه .. يفتى . لأن لمسة من الحب لمست روحه ففاضت بالحنان والجمال . وأحببت كل شىء .. حتى الآم وجدت له ميرا وعذرا ..

وفاطمة التي تمرح طليقة كما تشتهي تشرب السم تموت ببطء يائسة
وحيدة تعيسة .

بدون حب ..

يا ويلنا بدون حب ..

واحسست بالشوق . بالشوق اليهم الى الصعود حيث توجد حبيبتي
في ملكوتها وجمالها ..

وكان الشوق يسحقني يذيني ..

وكان اول شيء فعلته حيناً وصلت اني جريت نحو التليفون واغلقت
الباب كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده
ورفعت الساعة وادرت القرص على ارقامها الخمسة ثم جبت
فوضعتها وانا ارتجف .. ثم عدت احمق في الآلة السوداء .. والمشاعر
تنحطفي وليت فترة .. ثم عدت فأدركت الرقم .. وسمعت صوتها
رائقا .. صافيا حلوا ..

- نافي .. اريد ان اراك ..

ولبت صامتة لحظة .. ثم اجابت في صوت متهدج يذوب حبا :
- يا حبيبي .. اني اراك . اراك انت وحدك .. ولا أرى شيئا
سواك .. ارى بك الدنيا كلها .. اراها في ضوئك ..

- نافي .. انا اريدك ..

- يا حبيبي لا تغذلي .

- اني احبك . احبك .

- ان حبك جعلني ملكة .. فلا تدعه يجعلني جارية

- انا احبك .

- انا اعبدك .. انت روحي .. ارادق . امل .

- كن ارادق الكبيرة ولا تكن ارادق الصغيرة ..

- انت لا تحبينني كما احبك ..

- انا احبك اكثر مما تحبني
وسكنت لثنت .. وغطف انفاسها كأنها كانت تجري شوطا
طويلا

وأحسست بلهاتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب جدا
من روحى ..
وأحسست ان صغير جدا الى جوارها .. ولم اعرف كيف اعتذر.
- ساعدني لأحبك كما تحبيني ياملكتى .. لن اجعلك جارية ابدا ..
ابدا سوف اكون ارادتك .. إردائك الكبرى .. وأحمل أحلامك .
- يا حبي .. يا حبي .. يا حبي .



وظللت برهة ساكنا لأحس بوجودى فى الدنيا .. ثم بدأت
أفيق ..
وذهبت الى عملى .. وظللت اشتغل الى وقت متأخر من الليل ..
وعدت مرهقا لأتقعد فى فراشى ... مفتوح العينين فى الظلام ..
أتذكرها وأتذكر كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأتيس منها القداة ..
والنجاه .. وأتوسل بها الى الجزء الأسمى من وجودى .. وأصعد إليها
على درجات المستحيل درجة .. درجة . يأخذ حبا بيدي .. الى حيث
اجمل لذاتنا ..